
24
روايات مصرية للجيب
الآن .. نرجوكم
الصمت
سافاري
د. أحمد خالد
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقـــدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سفريّة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لاتنتهى .. وبيئة معادية .. وأهالٍ مشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. لختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطر لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) ..

نعيش معه تلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لا يمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون) ..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

* * *

1 ـ (كينيا) كالعادة ..

ولماذا لاتمضى الحياة كما كانت ؟

ما زال وجهى فى مكانه بنفس السمات ، ومازالت (برنادت) زوجتى ، ومازالت وحدة (سافارى) تستقبل الحالات التعسة ، ومازالت الملاريا شبيهة بثعبان نائم طيلة الوقت .. أحيانًا ينهض ويلدغ وتكون لدغته قاتلة ، ثم يعود للنوم ..

مازال (سينوريه) شاعرًا حالمًا ؛ حتى وإن تم تعيينه مديرًا للوحدة .. ومازال (ستيجوود) فى السجن والتحقيقات جارية .. مازالت آثار الانفجارات هنا وهناك ، وذكرى تلك الليلة السوداء التى قضيناها جميعًا فى مكتب المدير ..

مازال كل شىء فى مكانه ..

فلماذا لاتمضى الحياة كما كانت ؟

* * *

دعنى أقل لك حقيقة هى أن مكانتى صارت رفيعة إلى حد كبير فى (سافارى) .. صحيح أننى مصدر متاعب أينما ذهبت .. يكفى أن أظهر فى مكان ما ، حتى تبدأ المؤامرات والدسائس والموت والشجار ، لكن هذا يعنى أننى أصبحت شخصًا مرموقًا ..

هذا سبب لى بعض المتاعب .. لا أقدر أن أدعى أنهم يحقدون علىّ .. لا .. لا أجرؤ على هذا ، لكنهم بالتأكيد لم يعودوا يكنون لى ذات الود الذى عرفته من قبل .. بعض الابتسامات مفتعلة أو لا وجود لها على الإطلاق .. أضف لهذا أن عددًا لا بأس به منهم كان من (حاشية) المدير المنصرم (ستيجوود) ، وهم يروننى ذلك الفتى البغيض الذى جاء من (الكاميرون) ليدمر رئيسهم المحبوب ..

وهكذا اتخذت قرارى الأمثل فى التعامل مع القوم هنا : لا تتعامل مع القوم هنا .. هذا يبدو مريحًا إلى حد ما ..

كذا تمضى الحياة بلا جديد ، والحقيقة أننى بدأت أتأهب للعودة إلى (الكاميرون) حيث كل هؤلاء الأوغاد الأعزاء .. حتى هذه اللحظة لايوجد مايوحى بوجود خطر علىَّ من أى نوع .. صحيح أن هناك مجموعة من عبدة الأفاعى المجانين يعتبروننى كافرًا خائنًا ، وهذا حافز بالطبع كى يقرر أحدهم التقرب إلى الأفاعى بذبحى ، لكن مادام (بودرجا) حيًا يرزق فمن الواضح أن المدير فى (الكاميرون) بالغ كثيرًا فى رعبه ..

لكن خطتى لم تتوقف عند هذا .. طريق العودة إلى الكاميرون سيكون طويلاً نوعًا ، لأننى سأمر على مصر أولاً .. لابد من أن ترى أمى زوجتى وتحبها .. هذه نقطة مهمة .. لسوف تهيم بها حبًا ، ولسوف تجلسان فى الصالة أمام التلفزيون تشربان القهوة بالهيل (الحبهان) وتثرثران عن كل شىء .. ولسوف تكفان عن الكلام حين أدخل أنا ، مما يدل على أنهما تتحدثان عنى قطعًا ..

هذه أشياء لابد أن تحدث .. ولابد أن أراها تحدث ..

طبعًا لم أكن أعرف وقتها أن مغامرة قاسية فى (كليمنجارو) لابد أن تحدث لى قبل أن أظفر بهذا الترف .. سأرى (كينيا) كما لم يرها أحد .. وبعدها يحق لى أن أظفر ببعض الراحة .. لكن هذا موضوع الحكاية القادمة وليس هذه المرة ..

* * *

كنت أعقد ربطة عنقى فى ذلك الصباح واقفًا أمام المرآة ، بينما (برنادت) كانت بالفعل قد فرغت من ارتداء المعطف الأبيض ، ولفت المسماع حول عنقها .. لقد بقى على موعد العمل عشر دقائق لكنها نشيطة منظمة رائقة البال .. هذا يسهل حين تكون مسئولاً عن نفسك فقط ..

وابتسمت إذ تخيلتها تخوض صراعًا دمويًا مع وحش مريع كابوسى هو طفلنا .. طفلنا الذى قد يظهر يومًا ما ليجعل حياتنا ملحمة إغريقية ..

قالت لى وهى تمشط خصلات شعرها الأشقر الذى لايحتاج إلى تمشيط فى الواقع :

- « مازلت أجد من الصعب ألا يكون (ستيجوود) مديرًا .. »

قلت لها فى غيظ وأنا أضع المعطف على كتفى :

- « هل اشتقت إليه ؟ تبًا للنساء ! »

- « بل هو التعود يا بنى .. التعود .. لو أن كوبرا (رانجهال) اختارت بيتها تحت فراشنا ، فلابد أنك ستفتقدها لو صحوت يومًا فلم تسمع فحيحها .. »

ثم فكرت قليلاً وأضافت :

- « لماذا يحب الناس المال هذا الحب الجم ؟ »

- « لأنه رائع .. هذا هو كل شىء .. »

ثم بحثت عن المسماع بدورى ولففته حول عنقى وأردفت :

- « إنه يحل مشاكل كثيرة .. فكرى فى بيت ذى حديقة فى أهدأ موضع من العالم .. فكرى فى بحر لايبعد إلا عشرين مترًا .. فكرى فى نزهة فى (سنغافورة)

أو الهند أو البرازيل .. فكرى فى يخت خاص وطائرة رياضية و ... فكرى فى أى شىء غير هذا السجن الذى نعيش فيه .. إننى بشكل ما أفهم (ستيجوود) حتى لو كان قد بالغ بعض الشىء »

ـ « وهل كنت ستفعل ما فعله ؟ »

قلت فى لامبالاة وأنا أنظر حولى لأرى إن كنا قد نسينا شيئًا :

ـ « حتى هذه اللحظة لم أتعرض لأى إغراء .. ليس أمامى ما يسرق .. وأنا لا أملك الحكم على حراس المرمى الذين لم يتعرضوا لكرة واحدة طيلة المباراة .. لقد تعلمت أن كل إنسان يقضى حياته فى الفخر بأنه لم يقترف ذنبًا ، فالحقيقة هى أن نطاق حياته بعيد عن أية فرصة لاقتراف الذنوب .. فإذا أتيحت له الفرصة .. حسن .. أنت تعرفين من أين يأتى اللصوص والمختلسون والقتلة ! إنهم من بيننا ./. إنهم نحن ! هؤلاء أشخاص وجدوا الفرصة كاملة فأدركوا أنهم أضعف مما تصوروا .. أدركوا أنهم لم يكونوا قط شامخى الأخلاق كما حسبوا .. »

ـ « أنا لم أتعرض لأى إغراء ، واعتقادى الخاص أننى سأقاوم وقتها ، وأن تربيتى القويمة ستصمد .. لكن من يدرى ؟ إن الإغراء لمغر بحق .. وعندنا فى مصر نقول (الشيطان شاطر) .. ضعى عشرة رجال ممن يتشدقون بنبل الخلق والرفعة فى موقف يسمح بالفساد .. ولكن أكدى لهم أولاً أنه لا خطر عليهم على الإطلاق .. ما سيفعلون هو سر بينهم وبين ضمائرهم .. ثم راقبى نتيجة التجربة .. أعتقد أن اثنين من العشرة لا أكثر سيبرهنون بحق على أنهم نبلاء .. »

بدت عليها الحيرة وقالت :

ـ « أنا أعرف أننى سأصمد .. »

ـ « وأنا أعرف أننى (سأحاول) أن أصمد .. ومن يدرى ؟ لربما لعبت تربيتى دورًا وقتها .. ثمة مقولة فى مصر معناها (من لم يشبع على مائدة أبيه فلن يشبع للأبد) .. وأنا شبعت على مائدة أبى بالتأكيد .. لكنى أدعوا الله صادقًا ألا يضعنى فى موقف أتعرض فيه لإغراء .. »

- « نحن نقول فى صلاتنا : لاتدخلنا فى تجربة ، ولكن نجنا من الشرير .. »

هنا لاحظت فى رعب أن الوقت قد حان وأننا فقدنا أو كدنا مزية البكور .. لهذا فتحت الباب وأشرت لها أن الوقت قد حان .. ليست المناقشات حول الأخلاق هى أنسب شىء بعد الاستيقاظ من النوم ..

ذهبت هى إلى قسم الأطفال ، بينما اتجهت أنا إلى مكتب المدير (سينوريه) ، وكانت السكرتيرات الحسناوات منهمكات فى العمل . طبعًا نقصن واحدة هى (إيفيلين) .. وكان (سينوريه) من الطراز الذى لايريد كل هذا العدد فى مكتبه .. إن ما تقوم به أربع سكرتيرات يمكن أن تؤديه واحدة مخلصة .. هو بطبعه لايحب الاستعراض ولا المظاهر البراقة .. حاول أن يقلل العدد فلم يفلح أو لم يطاوعه قلبه كى يفعل ..

أما عن السكرتيرات أنفسهن فالمرأة كما تعلم كائن غريب شديد الغموض .. كان (ستيجوود) يضايقهن ويتعامل معهن كفتيات جميلات لاكزميلات عمل .. وقد ضايقهن ذلك كثيرًا وأشعرهن بنوع من المهانة ..

فلما جاء (سينوريه) لم ترق لهن على الإطلاق طريقته المهذبة الرسمية فى التعامل .. وشعرن بأنه ـ ربما ـ متعال أو أحمق .. بالإضافة إلى أنه كائن غريب ناحل عصبى لايمكن أن تقارنه بـ (ستيجوود) الوسيم الأنيق كما يرينه ..

هذه من تناقضات الأنثى التى لايمكن فهمها .. المفترض أن يكون المدير وقحًا ليتيح لهن أن يغضبن ويتذمرن منه ، ويتحدثن عن (ضيق أفق الرجل الذى لم يستطع قط أن يعتبر المرأة فردًا نشطًا فى المجتمع مثله) .. أما أن يتعامل بتهذيب وصرامة فهذه إهانة لهن ..

المهم أننى توجهت إلى المكتب ، وكانت علاقتى بـ (سينوريه) معروفة من البداية ، لهذا كن يسمحن لى بالدخول على الفور دون مناقشة .. بينما فى عهد سلفه كان علىّ أن أنتظر عشر دقائق على الأقل على سبيل الإعداد النفسى و (التطهير) ..

سألتنى السكرتيرة (جين) ضاحكة :

ـ « هل من مصائب جديدة ؟ »

هززت رأسى بمعنى أنى لا أذكر ، ثم مددت يدى فتناولت قدح القهوة الذى أمامها فرشفت منه رشفة كبيرة وسط عباراتها الاحتجاجية ، وقلت فى شىء من خجل :

ـ « معذرة .. إن القهوة تريح داء السل الرئوى الذى أعانيه .. »

ثم تركتها ودخلت إلى المكتب ..

كان (سينوريه) صديقى العزيز العصبى جالسًا يتشاجر فى الهاتف .. الحقيقة أننى لم أبتلع بعد فكرة أنه صار رئيسًا للوحدة .. هذا المقعد متسع عليه كما أتصور .. لكن من ناحية السن والخبرة والمركز العلمى ، لم يكن هناك إلا رجلان يصلحان للمهمة : (سينوريه) والفقيد (جون ويلسلى) لو كان حيًا ..

جلست دون دعوة ، وكان هناك (ترموس) ملىء بالقهوة من دون شك ، فمددت يدى وأفرغت لنفسى بعضها فى كوب ورقى كان هناك .. ورحت أشرب وأنا أتأمل الغرفة التى لم يتغير فيها شىء .. حتى شهادات

(ستيجوود) وصورتـــه الجداريـــة العملاقـــة . ليـس (سينوريه) من طراز (رمسيس الثانى) الذى يزيـل كل أثر لمن سبقوه .. كأنما يزيلهـم مـن التـاريخ ذاته ..

فى النهاية وضع السماعة وراح يبرطم بالفرنسية ، ثم قال لى :

- « يريدون قتلى بكل هذه الأعباء .. »

هززت رأسى بمعنى التعاطف ، فقال لى وقد تنكر :

- « هل أنت واثق من أنك راغـب فـى العودة إلـى (سافارى - 4) ؟ »

- « ظننت هذا مفهومًا يـا سيدى .. إن مصـر هـى وطنى الأول .. و(سافارى - 4) هى وطنـى الثـانى .. فإن لم أستطع العودة لوطنى الأول كان وطنى البديـل على الأقل .. »

- « فعلنـا كل مـا يمكـن كـى نريحـك والدكتـورة (عبد العظيم) .. »

ـ « وأنا أعترف بهذا شاكرًا ، لكن الراحة ليست كل شيء .. هناك الألفة .. هناك التعود .. ومهما بلغ جمال المدرسة يشعر الطفل بحاجة ملحة إلى العودة إلى داره المتواضعة بعد الظهيرة .. »

قال وهو يوقع بعض الأوراق :

ـ « ليكن .. لكن لابد من أن تعطيني وقتًا .. لابد من أن نستقدم طبيبًا جديدًا لحملة (كالا آزار) .. المشكلة هي أنك صرت جزءًا مهمًا من الآلة .. »

ـ « هذا يؤكد ماقاله الحكماء قديمًا : لاتصر جوهريًا .. لاتكن عنصرًا يستحيل الاستغناء عنه .. »

ـ « سنحاول الاستغناء عنك ، وإن كان هذا صعبًا .. »

ولم يتكلم أكثر ، لكنى كنت أفهم .. إن منصب المدير يكبله بألف صفد .. لكن هذا الرجل يحبنى ويحترمنى مثلما أحبه وأحترمه بالضبط .. سوف يكون الفراق عسيرًا ، لكنى سأكتب له بانتظام .. ومن يدرى ؟ إن أعضاء (سافارى) أحجار على رقعة شطرنج .. لايعرف

أحد أبدًا أين يوضع الشهر القادم .. ربما يأتى هو إلى (سافارى – 4) أو أعود أنا لأستقر هنا أبدًا ..

كان يقلب الأوراق المتراكمة على مكتبه والتى لايعرف بالضبط الحل الصواب مع أكثرها . لابد أنه الآن يعتبر أن (ستيجوود) كان عبقريًا ..

قال لى :

– « هناك انتداب فى (نيروبى) .. وزارة الصحة تريد أطباء .. »

اعتدلت فى مقعدى وأرهفت السمع :

– « من يريد أطباء ؟ »

نزع عوينات المسافات المقعرة ليتمكن من القراءة بشكل أفضل ، وأبعد الورقة قليلاً ثم قال :

– « مشروع دراسات الباراسيولوجى .. يبدو أن هناك روسًا فى الموضوع .. »

ثم راح يقرأ بصوت خفيض كأنما يدندن ، مما جعلنى أفوت نصف ما قال :

ـ « نم نم نم نـم .. فـائق الاحترام .. همممم .. نم نم نم نم .. نم نـم نـم نـم ... أشـخاص من ذوى الخلفية الطبية .. نم نم نم نم ... متطوعون لغرض ورشـة عمل .. نم نم نـم نـم ... عواصـف دمـاغ Brainstorming .. نم نم نم نم .. بروفسور (بوريس سيماكوف) الباحث الرئيسى فى المشروع .. »

ـ « كم طبيبًا يريد ؟ »

عاد يقرأ الورقة من جديد مما دلنـى علـى أن تركيزه ضعيف :

ـ « مممم .. اثنان .. »

لم أنتظر حتى أفهم .. فقط جلست على طـرف مقعدى حتى صرت أقرب إلى الوقوف وصحت :

ـ « لماذا لاترسلنى و (برنادت) يا سيدى ؟ أنا فى حاجة جمة للتغيير .. »

نظر لى مفكرًا بعض الوقت ، ثم قال :

ـ « أرسلك أنت ؟ »

- « و (برنادت) .. »

- « و (برنادت) ؟ »

فلو كنت أقل تهذيبًا لقلت لـه إنـه لا يتقـاضى راتبًا كى يجلس هنا ويردد ما أقول .. بعد صمت طال قال :

- « دعنى أفكر فى الأمر .. »

نهضت وأنـا علـى وشـك أن أجثـو علـى ركبتـى متوسلاً :

- « د. (سينوريه) .. لو كان عليك أن ترسل أحدًا فإننى أتوسل إليك أن أكون هذا الواحد .. لاحظ أننـى لم أر (نيروبى) تقريبًا .. »

- « سأرى ما يمكن عمله .. »

وغرق فى مزيد من الأوراق فرأيت أنه من الوقاحـة أن أكرر إلحاحى .

* * *

2- فى نيروبى ..

كانت مشكلتى مع إفريقيا من البداية هى أننى ظللت دومًا نائيًا عن العواصم والمدن الكبرى .. دومًا أنا فى بلدان صغيرة بعيدة .. أقرب إلى القرى ، لهذا اكتسبت طباع القروى الساذج الذى يبهره بريق المدينة ، والذى لا يصدق أن هناك مبانى شاهقة وطرقًا نظيفة وسيارات وطائرات .

إن (نيروبى) عاصمة ضخمة تحبس الأنفاس .. ويمكنك بسهولة أن تعتقد أنك فى (لوس أنجيليس) أو (ميونيخ) لولا أن من يحيطون بك سمر البشرة ..

كنت و (برنادت) نقطع الشوارع مذعورين .. نتعثر فى خطواتنا من كل هذا الضجيج وإيقاع الحياة السريع .. بعد أشهر من الحياة فى مكان مغلق لا ترى من نوافذه إلا الأدغال وقرى (الكيكويو) ، تغدو الحياة فى مدينة مشكلة حقيقية ..

طبعًا من الواضح لك الآن أن المدير قبل إرسالنا فى تلك المهمة العلمية ، وقد احتاج إلى أسبوع كى يحزم أمره لكن العبرة بالنهايات كما ترى ..

إن (نيروبى) هى عاصمة البلاد ، وقد أنشأها البريطانيون عام 1890 كمحطة ربط على خط القطار الشهير (مومباسا ـ أوغندا) .. و(مومباسا) لمن لا يعرف هى أهم ميناء فى البلاد ..

أقيمت (نيروبى) فوق أراض رعوية كان الماساى يعيشون فيها .. وقد صارت عاصمة البلاد الرسمية عام 1963 ، وإن عانت من اضطرابات مختلفة وحروب أهلية فى تسعينات القرن العشرين ، بسبب ارتفاع نغمة المعارضة ضد الرئيس الكينى (دانييل موى) .. فى الحقيقة أين هى الدولة الإفريقية التى لا تعيش تلك الاضطرابات منذ الاستقلال فى الستينات ؟ أو كما يقول الأمريكيون : أليسوا كذلك جميعًا ؟

من الناحية الجغرافية البحتة ، هى مدينة مرتفعة .. ربما نحو ألفى متر فوق سطح البحر ، لذا تعد من المدن

الباردة فعلاً .. وهو درس قاس لواحد مثلى يعتبر أن زيارة أى بلد إفريقى تعنى أن يحمل معه قميصين قصيرى الأكمام لا أكثر ..

سبق لى أن قلت إنها أقيمت فى أعجب مكان يمكن أن توجد به مدينة .. إنها ترتفع عن مستوى البحر كثيرًا ، لكنها فى موضع منخفض بالنسبة للهضاب المحيطة بها ، وبالتالى هى معرضة لسيول المطر التى تنصب عليها فى موسمى الأمطار .. أى فى صيف مصر وخريف مصر ! ويقال إن هذا كله بسبب حماقة مهندس أخطأ فى حساباته وهو يضع أساس هذه المدينة ..

لسوف تلاحظ أن النشاط الأساسى للمدينة كلها هو السياحة .. السياحة نشطة جدًا فى (نيروبى) ، وفى كل موضع تجد مكاتب تنظيم رحلات (السافارى) .. لكن (السافارى) ، لم يعد يعنى صيد الوحوش ولكن مشاهدتها وتصويرها ..

ولا غرابة فى هذا ، لأن (نيروبى) بها أعظم محمية

طبيعية للحيوانات .. حيث يمكنك أن ترى وحوش الغاب تمارس حياتها بحرية تامة .. سوف تجد كذلك المتحف القومى وهو محترم برغم صغره .. وتجد مكتبة (ماكميلان) التذكارية وقاعة الكونسرفتوار ..

على أننى و(برنادت) لم نر هذا كله ، لأننا قضينا ليلتنا مرهقين فى غرفة تم حجزها مسبقًا فى أحد فنادق المدينة .. كان فندقًا فاخرًا على كل حال ..

فى الصباح كان علينا أن نذهب إلى الجامعة كى نقابل البروفسور (بوريس سيماكوف) .. هذا هو الاسم الوحيد الذى نملكه .. والحقيقة أننى حتى تلك اللحظة لم أفهم قط ما إذا كنا متطوعين لدراسة ما ، أم مشاركين فيها ، لكنى فقط كنت أعرف أن أمامنا عشرة أيام على الأقل لا نرى فيها ذات الوجوه ونمشى فى ذات المواضع ..

كانت (برنادت) منتعشة ، وشعرت كأنها طفل صمم على أن يستمتع بما يقوم به ..

سألتها فى لحظة صفاء ونحن نمشى فى الشارع المزدحم :

ـ « هل أنت راضية عنى ؟ »

ابتسمت ولم تقل شيئًا .. فعدت أسألها :

ـ « راضية ؟ »

لم ترد .. ثم بعد دقيقة صمت قالت :

ـ « لماذا تفسده بالكلام عنه ؟ هناك أشياء تبتذل قيمتها بتحويلها إلى كلمات .. ولكن أين ذهبت تلك الجامعة ؟ »

الحقيقة أنه كان سؤالاً سخيفًا لأننا كنا واقفين أمامها بالضبط ..

* * *

كان مكتب الدكتور (ويليام سوبا) صغيرًا ضيقًا لكنه مريح .. وقد أحسن استقبالنا ، ثم جلس إلى أحد المقاعد أمام المكتب لا خلفه كى يشعرنا بالألفة .. كان رجلاً

ممتلئًا شديد السواد أقرب إلى القصر ، وله ابتسامة آسرة كابتسامات الأطفال .. خاصة أنها تبدو كثقب أبيض يتسع فى وجهه الأسود ..

قال لنا بينما هو يخرج من ثلاجة صغيرة بعض علب المياه الغازية :

- « جئتما مسافة لابأس بها .. لكنى أعتقد أنكما ستحبان المناخ هنا .. »

قلت له وأنا أنظر لـ (برنادت) لأرى إن كنت قد أخطأت فى شىء :

- « فى الحقيقة ياسيدى مازلت عاجزًا عن الفهم .. هل نحن سائحان أم ضيفان هنا ؟ هل نحن منتدبان للمساهمة فى البحث العلمى أم لإجراء تجارب علينا ؟ »

ثم ابتسمت وقلت فى كياسة :

- « والسؤال الأهم هو .. من أنت ؟ لقد جئنا هنا لأننا سألنا عن الدكتور (بوريس سيماكوف) .. »



قال لنا بينما هو يخرج من ثلاجة صغيرة بعض علب المياه الغازية : ـ «جئتما مسافة لا بأس بها» ..

ضحك كثيرًا ، ثم قال :

ـ « هذا سؤال من حقك .. أنا رئيس قسم علـم النفس هنا .. أنا لست طبيبًا لكنى باحث فى أسرار النفـس .. والبروفسور (سيماكوف) ضيف عزيز علينا ، لكنه ليس صاحب البيت .. إنه يدير المشروع بينمـا أنا المنسق الكينى لكل شىء .. »

ـ « لم أعرف جواب الشق الأول من أسئلتى .. »

ـ « هل أنتما متطوعان أم باحثان أم ضيفان ؟ الحقيقة هى أنكما خليط من هذا كله .. »

ووضع ساقًا على ساق وقال :

ـ « أحب أن تفكرا فى الأمر باعتباره لعبـة أطفـال مسلية ، تلعبانها بضعة أيام ثم تعودان إلى بيتكما مع الشكر .. »

هنا تكلمت (برنادت) لأول مرة .. وكـان سؤالها ذكيًا كالعادة .. (برنادت) لاتسأل أسئلة غبية إلا فيما يتعلـق بمكان الجامعة :

ـ « من الغريب أننـا أجنبيـان عن (كينيا) .. فهل هذا شرط مهم للعمل ؟ »

ـ « إلى حـد ما .. لكن هـذا الطـراز مـن الأسئلة يوجه له لا لى »

ـ « هل هناك آخرون ؟ »

ـ « حوالى عشرة .. كلهم ـ كما لاحظت أنت ـ من جنسيات غربية مختلفة .. لدينا فرنسيون وألمان ويابـانى وأمريكى .. الآن أضفنا مصر وكندا إلى القائمة .. »

هنـا دق جرس الهـاتف فرفـع السـماعة وأنصـت باهتمام ، ثم قال لمحدثه :

ـ « ليكن .. نحن قادمون .. »

ثم نظر لنا وابتسم :

ـ « أرى أن تفرغا من الشرب سريعًا ، لأن البروفسور (سيماكوف) ينتظركما .. »

* * *

لم يكن معمل دراسات (الباراسيكولوجى) مبهرًا بشكل خاص .. ليس هناك هنود ممن يمارسون اليوجا ولاتوجد مقاعد تتحرك لو خطر هذا ببالك ..

إن علم (الباراسيكولوجى) ـ أو (ماوراء علم النفس) ـ هو علم يتعلق بدراسة الحواس التى نملكها ولانعرف أننا نملكها .. وهى حواس غير تلك الخمس المعروفة لنا .. خذ عندك الحاسة السادسة والسابعة والثامنة .. إلى ماشاء الله ..

هى حواس يقال إنها كانت عندنا جميعًا ثم انقرضت بفعل التمدين .. كما جعلت أضواء المدينة المبهرة من المستحيل عليك أن ترى النجوم كما كان يراها أجدادنا .. ترى منذ متى نظرت للشمال ورأيت وعاء الدب الأكبر واضحًا صافيًا ؟ لابد أن هذا كان من قرون ..

يطلقون على علم دراسة تلك الحواس اسم (باراسيكولوجى) .. هواة التحذلق منا يعرفون أن (بارا) بادئة يونانية معناها (جوار أو وراء) .. و (سايكولوجى) هو علم النفس طبعًا ..

وكعادة الأمريكيين فى تدليل كل شىء واختصاره ، يتحول اسم (باراسيكولوجى) إلى Psi .. وأحيانًا يطلقون عليه اسم ESP أى (الإدراك الفائق للحواس) ..

هذه علوم ـ فيما أراه ـ لاتخلو من الصحة والأهمية .. لماذا يدق الهاتف حين تفكر فى صديقك ويتضح أنه هو ؟ لماذا تختنق الأم وتتقبض حين يجرح ابنها فى ميدان الحرب ؟ لماذا تشعر بالهجوم على ظهرك من قبل أن يحدث ؟

هذا ما أعرفه عن الموضوع ، وعلى كل حال لم أكن يومًا من المهتمين بهذه الأمور ، وأشعر بأنه علم غير قابل للقياس والتكرار والتفسير ، لهذا أتجاهله كلية .. لكنى أعرف أن السوفييت اهتموا به كثيرًا ، ولهذا من الطبيعى أن نجد هنا طبيبًا روسيًا ـ لم يعد سوفييتيًا طبعًا ـ يهتم بالأمر ..

ولكن ما قصته ولماذا اختار (كينيا) بالذات ؟

هذا ما سأعرفه بعد قليل ..

كما قلت لك كان المختبر مخيبًا للآمال .. بل هو أقرب إلى مختبر الكيمياء الحيوية العتيق فى كليتى .. هناك قفصان فيهما بعض الفئران (لابد أن هذا مصدر الرائحة) .. وقفص أكبر فيه كلب تعس .. وثمة مجموعة من الأجهزة العتيقة التى تذكرك بأجهزة رسم القلب أو - إن كنت تهوى الأفلام الأمريكية - جهاز كشف الكذب ..

أما عن البروفسور (بوريس سيملكوف) فهو الذى يقف وسط هؤلاء الخمسة .. إن له مزية مهمة جدًا هى أنه لايمتاز بأى شىء على الإطلاق .. ليس وسيمًا وليس قبيحًا .. ليس أنفه عملاقًا وليس دقيقًا .. ليس ضخمًا ولا ضئيل الحجم .. نظراته غير ثاقبة لكنها كذلك ليست خابية .. هل هو أنيق ؟ لا أعرف .. مجرد سترة رمادية مفتوحة من تحتها كنزة سوداء عالية الرقبة .. وجهه حليق تمامًا وبلا عوينات .. حتى لون عينيه كارثة لأنها مزيج من الأزرق والرمادى والأخضر والذهبى والأسود .. الخلاصة أنه كان مشكلة حقيقية لرسام الشرطة الذى سيحاول تكوين صورته

من أقوال الشهود ، بعد ارتكاب (سيماكوف) جريمة قتل ..

أضف لهذا أن ذلك الشعور غير مريح على الإطلاق .. أنا تعاملت مع أحط أنواع البشر لكنى أجد التعامل معهم أكثر راحة من التعامل مع هذا الإنسان الأميبا الذى لاشكل له ..

كانت تقف جواره فتاة لابأس بجمالها ، لكنها تحمل طابعًا عمليًا (سوفييتيًا) خشنًا إلى حد ما .. وأنبأتنى أسنانها وتجاعيد وجهها أنها مفرطة فى التدخين ..

ـ «(كاتيا شلوندروف) .. مترجمة من (موسكو) ..»

قالتها بالفرنسية وصافحتنى بيد خشنة قوية أشعرتنى بأننى فتاة رقيقة هشة .. ثم صافحت (برنادت) بقوة أكبر ، ونظرت إلى البروفسور الكبير الذى رسم على وجهه ما يشبه ابتسامة ، وقال أشياء على غرار :

ـ « زدراست فوى تى .. تافاريش .. خاراشو .. الخ .. الخ ..»

قالت لنا بتلك الطريقة الرسمية الجافة كأنها فى الأمم المتحدة :

ـ « بروفسور (سيماكوف) يرحب بكم فى هذا المعمل الصغير ويتمنى لكم أن تستمتعوا بهذه الفترة الوجيزة التى ستمضونها معنا .. »

قالت (برنادت) وهى تفك أصابع كفها التى التصقت ببعضها بعد المصافحة :

ـ « تشرفنا .. لكنى كنت أفضل لو بدأنا الكلام بدلاً من الرسميات .. »

بدأت الفتاة تقدم لنا مجموعة الواقفين .. طبعًا حين انتهت لم نكن نذكر اسمًا واحدًا .. فقط فهمنا أن هؤلاء هم زملاؤنا فى التجربة وهم من جنسيات متعددة ..

ـ « مجموعة من الأشخاص لهم عدد من الوجوه والأسماء » .. هكذا قلت لنفسى .. ووجدت أن هذه النتيجة كافية جدًا وتلخص كل شىء ..

لكن مازالت هناك عدة أسئلة أشعر بأن الحياة ستكون أكثر إشراقًا لو عرفت إجاباتها :

1- لماذا كينيا بالذات ؟

2- لماذا غير الكينيين بالذات ؟

3- ما هذا الذى سنقوم به ؟

* * *



3ـ هؤلاء الرجال العظام وتجاربهم الغامضة ..

هذا العنوان مقتبس من فيلم أجنبى بالغ الشهرة ، ولا يعنى بحال أنى أعتبر هؤلاء القوم عظامًا .. ربما أعرف هذا فيما بعد ، أما اليوم فأنا فضولى لا أكثر ..

كنا جالسين الآن إلى منضدة صغيرة فى المعمل على شكل حلقة نصغى إلى ذلك الروسى ، وهو يكلمنا عن طريق المترجمة .. وقد بدا لى واضحًا أن الآخرين لم يسبقونا بمسافة طويلة .. إذن لم يفتنا شىء تقريبًا ..

قال لنا وسط حلقات الدخان التى تبعثرها لفافة تبغ المترجمة التى فهمت أنها لا تفارق شفتيها :

ـ « أنا أستاذ علم نفس زائر هنا فى (كينيا) ولى جدولى التدريسى الخاص ، لكنى حملت معى اهتماماتى الخاصة من (موسكو) .. لا أحاول أن أدعى المجد أو الشهرة ، لكنى من علماء الباراسيكولوجى المهمين فى وطنى .. وأنتم تعرفون التجارب الجادة الصارمة

التى تم إجراؤها عندنا على تحريك الأجسام عن بعد (سايكوكينيزيس) والتخاطر (تليباثى) .. أبان الحرب الباردة قيل إن الاتحاد السوفييتى يملك كتيبة من قارئى الأفكار بعثرهم فى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية .. حسن .. لن أعلق على هذا .. لكنى كنت قريبًا جدًا من هذا المشروع .. »

ـ « بعد انهيار الاتحاد السوفييتى تدهورت حالة السلك الجامعى المالية ، وشعرت بأن علىَّ أن أجرب حظى فى بلدان أخرى تحتاج إلى علمى ويمكنها أن تدفع جيدًا .. وهكذا استقر بى الحال فى جامعة (نيروبى) ، وبرغم الصعوبات اللغوية الجمة فإننى استطعت أن أنجح وأن يكون لى تلاميذ متفوقون .. »

للمرة الأولى نطقت (برنادت) :

ـ « هل تلقى محاضراتك مع الترجمة ؟ »

نقلت له المترجمة هذا السؤال فقال :

ـ « لا .. إن لغتى الإنجليزية سيئة جدًا لكنها مفهومة ..

أنا الآن أستعمل الروسية من أجل مزيد من اللغة الطلقة التى تعبر عن أفكارى أكثر »

ثم عاد إلى الموضوع :

- « قمت للمرة الأولى بإنشاء مختبر للباراسيكولوجى ، وهو نشاط غير مألوف فى هذا الموضع من العالم .. لكن نظريتى كانت هى أن الإدراك الفائق للحواس أكثر تطورًا لدى الأجناس البدائية من البشر .. أو بعبارة أخرى لنقل إن صدأ الحضارة لم يغط تلك الحواس بعد .. إن القط يشعر بدنو الزلازل وبالحرائق ، ربما لأن الحضارة لم تطغ على حواسه المرهفة .. ورهانى كان على أن الإنسان البدائى يملك هذه القدرات مثل القط بالضبط .. وقد وقع اختيارى على قبائل الكيكويو التى - برغم أنها ليست بدائية تمامًا - تعطى فكرة لا بأس بها عن الإنسان البكر الذى لم يفسد حواسه التلفزيون والكتب وعادم السيارات .. »

- « لم يكن الأمر سهلاً لكنى حصلت على نتائج

مهمة جداً .. هنا تبقى مشكلة العلم التقليدية .. لايمكن أن أقول إن (إيفان) قصير القامة أو طويلها مالم تكن عندى فكرة واضحة عن القامة المعتدلة .. أنا بحاجة إلى مجموعة قياسية من البشر المعاصرين .. البشر الذين تعلموا وذهبوا إلى المدرسة وعرفوا الكاميرا والسينما وقادوا السيارات وقرءوا الصحف .. هنا خطر لى أن أستقدم مجموعة من الأطباء من جنسيات مختلفة لكنهم ليسوا من الأهالى هنا .. يمكن القول إن الطبيب هو النموذج الأفضل للحضارة المعاصرة التى حجبت النجوم عن أعيننا .. تشاورت مع وزارة الصحة وقد سمحوا لى باستضافة بعضكم ، وأعتقد أن أحدكم لم يأت هنا إلا بكامل إرادته الحرة .. »

ـ « بكامل إرادته الحرة » .. هذا هو أسلوب مصاصى الدماء .. يقال إنهم لايمتصون إلا دماء من جاءوا على أقدامهم بكامل إرادتهم الحرة ، وهم يحبون دوماً أن يتأكدوا من هذه النقطة .. طبعاً ـ فى القصص ـ يلعبون شتى أنواع الحيل كى تأتيهم الضحية بإراداتها .. أو ما تحسبه إراداتها ..

قالت (برنادت) باسمة :

ـ « إذن نحن هنا لأن الحضارة أفسدتنا وأتلفت حواسنا .. »

ـ « بالضبط .. هذا هو ما أعنيه .. »

ـ « وما المطلوب منا بالضبط ؟ »

ـ « هذا هو موضوع التجارب التى نبدؤها حالاً .. »

★ ★ ★

ـ « حقًا يا إخوانى كان الأمر أقرب إلى لعبة .. وقد بدا أن الجميع مستمتعون بوقتهم .. وتصاعدت ضحكات لاتوحى على الإطلاق بأن هذا معمل .. »

بالتأكيد يحق للناس أن ينظروا إلى هذه الأبحاث بشىء من الشك فى جديتها ..

قال لنا البروفسور عن طريق مترجمته :

ـ « إن حاسة الـ Psychometry أو (القياس النفسى) هى موضوع أبحاثنا .. وهى حاسة محترمة ويستخدمها

رجال الشرطة كثيرًا جدًا .. وأكثر الدراسات تقدر أنها موجودة بالفعل لدى سبعة أشخاص من كل عشرة .. سميت بهذا الاسم لأن الطبيبين (بوكانان) و(دنتون) قالا إنها الحاسة التى تعطيك القدرة على قياس الوجود النفسى للأشياء الجامدة .. هذه الحاسة تتعلق بقدرتك على استخلاص معلومات عن جسم مادى بمجرد لمسه .. لو كان من الصحيح أن لنا هالات إكتوبلازمية ، فإن بوسعنا أن نترك أجزاء من ذواتنا على ما نلمسه .. وموهبة (السايكومترى) تتعلق بقدرتنا على معرفة هذه الأجزاء .. يقال إن الأجسام المعدنية تتمتع بكفاءة خاصة فى الاحتفاظ بمعلومات عمن يلمسها(*) .. »

ثم رفع يده وأمر مترجمته بأن تخفض الإضاءة فى القاعة إلى أقصى حد لها ، وقال بصوت رتيب :

ـ « الآن .. نرجوكم الصمت .. »

(*) طبعًا كل المعلومات والتمارين الواردة فى هذا الكتيب حقيقية ..

الخطوة الأولى هى التنفس باسترخاء .. لا أعرف أهمية التنفس فى هذه التجارب لكنها جميعًا تصر عليه .. والتنفس باسترخاء يعنى أن تأخذ نفسًا بالأنف وتحبسه لثوان ، ثم تخرجه من الفم ببطء ..

بعد هذا وضع فى يد كل من الجالسين جسمًا معدنيًا (قلمًا أو مفتاحًا) وقال :

- « أقترح أن تضعوا الشىء فى اليد اليسرى ، لأن الطاقة تدخل الجسم من الناحية اليسرى وتغادره من الناحية اليمنى »

ثم طلب منا أن نتحلى بالصبر ولا نفقد هدوءنا .. على كل منا أن يحاول تحرير عقله وأن يستحضر ما يراه فى ذهنه .. سوف تتشكل صورة وعلى كل منا أن يصف هذه الصورة فى مفكرة صغيرة ..

ومر الوقت ببطء ، وبدأ البعض يدونون ما رأوه ..

ماذا أراه ؟ لاشىء .. شعرت بخجل من نفسى كأننى فى امتحان الثانوية العامة أجلس بلا عمل ، بينما كل من حولى يكتبون بلا انقطاع ..

بدأت أرسم بعض الخطوط على المفكرة ، ثم وجدت أن هذه الخطوط توحى بشكل معين .. يبدو أن الحيلة ناجحة .. بدأت أوصل الخطوط فى حماسة .. وفى النهاية وجدت نفسى أحدق فى صورة لا بأس بها لخنزير !

مرت ساعة كاملة ، ثم نهض (سيماكوف) وراح يجمع الأوراق والأجسام المعدنية من أيدينا :

ـ « لا بأس .. ممتاز .. لا بأس .. سيئ .. »

بهذه العبارات راح يصحح لنا أوراق الامتحان بشكل سريع .. وظفرت (برنادت) بـ (ممتاز) فالتفتت لى وكورت أنفها بطريقة (التشنيكة) الشهيرة كأنما هى طفل نال أعلى درجة فى الإملاء ..

وصل الرجل لى فتناول الورقة ونظر إلى ما عليها .. ثم تقلص وجهه فى اشمئزاز وغيظ وواصل الجولة .. هنا تذكرت .. إنه هو على الأرجح أكثر من لمس المفتاح الذى كان فى يدى ، وبالتالى ليس من الإلهام الموفق أن أرى خنزيرًا فى عقلى الباطن كلما لمست هذا المفتاح !

فى النهاية وقف أمامنا وقال عبر المترجمة :

ـ « هذه هى تمارين اليوم الأول .. بعضكم يملك الحاسة لاشك فيها .. وبعضكم لايملكها على الإطلاق .. »

ـ وهنا نظر لى نظرة لاتخفى على أحد ـ « علينا أن نتذكر أن الرؤى التى رأيناها قد لاتكون بهذا الوضوح .. قد لانفهمها الآن .. وقد لانفهمها للأبد .. لكنها العلامة الأولى على أن حواسنا تنفض عنها الصدأ .. سنواصل العمل ولن نيئس .. أراكم غدًا فى التاسعة صباحًا فى نفس المكان .. »

بعد انتهاء التجربة وثب (برنادت) كطفل مرح، وهتفت :

ـ « هل رأيت ؟ إن عملنا هنا سيكون نزهة ! كان هذا هو كل المطلوب منا اليوم !! إننى أهيم حبًا بهذه التجارب التى لامعنى لها ! »

ـ « وماذا رأيت فى غيبوبة (الترانس) التى مررت بها ؟ »

ضحكت وقالت بلهجة تمثيلية :

ـ « رأيت امرأة .. رأيت امرأة عجوزًا كأنما جاءت من الأبدية .. وكانت لها ثلاث أسنان ناقصة ..»

ـ « وكتبت هذا ؟ »

ـ « وصفت المرأة بالتفصيل كأنما أراها .. لابد أن هذا المفتاح الذى كان معى كان يخص خالة (سيماكوف) العجوز .. ربما كانت تغلق به المطبخ كى لايسرق المربى ! »

ثم تركتنى ولحقت بالواقفين كى تتبادل معهم الأحاديث المرحة ..

وأدركت من الأحاديث أن هناك تلاميذ فاشلين كثيرين ، لكنى العبقرى الأوحد الذى رسم خنزيرًا ، سيمر وقت طويل إلى أن يتوصل علم (الباراسيكولوجى) إلى أن يفهمنى ..

* * *

4 ـ الآن نرجوكم الصمت ..

فى الصباح التقينا وتبادلنا الابتسامات .. كان هناك نوع من المودة قد سرى بيننا .. كان الموجودين أطباء لكنهم ليسوا من (سافارى) .. أكثرهم يعملون فى (كينيا) مع جهات حكومية أخرى ..

وقال لى الطبيب الأمريكى الوحيد بينهم :

ـ « هل رأيتم (نيروبى) جيدًا ؟ »

قلت له :

ـ « ليس بعد .. كنا نظن أننا سنكون منهمكين .. لكنى الآن بدأت أعتقد أن لدينا من الوقت ما يسمح بدراسة كل حجر .. »

ضحك .. وبدا لى شخصًا ودودًا .. كنت أومن دومًا أن كل أمريكى شخص لطيف طلق بسيط حين تتعامل

معه وحده .. لكن حين يجتمع أكثر من شخص لتتكون منهم (دولة أمريكية) فإن الأمور تختلف ..

دخل البروفسور مع مترجمته ليقول لنا :

ـ « داو بروى أوترا »

ثم بدأ يشرح لنا أن درس اليوم يتعلق بمملكة النبات ..

ـ « ساعطى كلاً منكم صخرة من الطبيعة .. سيمسك بها كل واحد فى يده ويغمض عينيه .. ليتخيل أنه جزء منها .. ليتخيل أنها حقيقته الحالية .. لينظر بعينى الحجر .. ليفكر مثله .. إنه قطعة من ذاتك ، ويمكنك أن تتعلم كيف تحركه .. بل يمكنك أن تحركه لو أردت هذا حقًا !! لكن من فضلك لاتفقد أعصابك ولا تشتم الشىء لأنه لايستجيب .. اسأله عن الناس .. عن الأشجار .. عن الكون .. »

ثم رفع يده وأمر مترجمته بأن تخفض الإضاءة فى القاعة إلى أقصى حد لها ، وقال بصوت رتيب :

ـ « الآن .. نرجوكم الصمت .. »

ودارت علينا المترجمة تقدم لكل منا صخرة .. تبادلت و(برنادت) نظرة باسمة لها ألف معنى، ثم أمسكت الحجر وبدأت أثرثر معه ذهنيًا ..

يجب أن أنظر بعينى الحجر ..

يجب أن أفكر مثله ..

يجب أن أحركه حقًا !

- « اكتبوا ما ترون وما تشعرون وما تسمعون .. »

مضت بضع دقائق على هذه التجربة ثم بدأ البعض يدونون ما رأوه .. كالعادة لم يكن لدى ما يقال لهذا كتبت فى الدفتر :

- « هذا الحجر ثقيل .. ثقيل .. »

وظللت أكرر لفظة (ثقيل) حتى ملأت الصفحة ..

انتهى الزمن الأصلى للامتحان، وراح المراقب يمر لينزع الأوراق من أيدينا مع عبارات من طراز : جيد .. ردىء .. متوسط ..

فلما رأى ورقتى لم يقل شيئًا على الإطلاق .. وواصل جولته ..

ـ « أنظر بعينى الحجر وأفكر مثله ! » كم بقى من الوقت على مستشفى الأمراض العقلية إذن ؟

هنا سمعت البروفسور يقول بالروسية ومترجمته تترجم :

ـ « أنت تتمتعين بموهبة لاشك فيها »

نظرت إلى تلك الموهوبة فوجدت أنه يتكلم مع (برنادت) ! إذن الخبيثة تملك إدراكًا فائقًا للحس ! وكانت هى تنظر لى فى خبث طفولى باعتبارها تفوقت علىَّ بشكل واضح ..

قلت لنفسى : لابأس . إن كان الفشل فى هذا الاختبار يعنى أن الحضارة قد غطت مواهبى فإننى لفخور بهذا الفشل .. وإلا لكان التفوق حليف أى محارب من قبائل (البوشمان) يرقص حول النار ..

سبعة من كل عشرة يملكون هذه الموهبة .. أنا الثامن أو التاسع أو العاشر .. حقًا إننى لعبقرى !

وحين جلست جوارى همست فى أذنها :

ـ « أرجو ألا يتضمن الدرس التالى التهام اللحم النىء لتحديد نصيبك من الحضارة .. »

قالت ساخرة :

ـ « هذا اختبار للشفافية .. وقد نجحت فيه وأنت رسبت ! »

ولكن كانت أمامها بضعة أيام قبل أن تتكلم عن النجاح أو الفشل ..

* * *

ـ « درسنا اليوم يتعلق بمملكة الحيوان .. »

ومرت علينا المترجمة التى لاتفارق لفافة التبغ شفتيها حتى إننى بدأت أحسبها زائدة خلقية يمكن إزالتها بجراحة دقيقة .. مرت علينا وهى تحتضن مجموعة من الجراء الصغيرة اللطيفة .. تلك الجراء التى لاتعرف عن الكون إلا أنه المكان البارد الذى يجعلها ترتجف .. ولم تكن هناك مشكلة فى التعامل

معها حتى لكارهى الكلاب ، لأنها كانت أقرب إلى دمى أطفال ..

تساءلت همسًا :

ـ « هل حان وقت درس التهام الجراء ؟ »

هنا علا صوت المترجمة تنقل لنا تعليمات الدرس :

ـ « ضع يديك على الجرو .. انقل له بذبذبات يديك رسالة من الحب والسلام والحنان .. لسوف يفهمها .. ركز تفكيرك كما فى المرات السابقة واستقبل ما يقول .. خذ منه كل شىء .. لسوف تتعلم منه الكثير .. »

ثم رفع يده وأمر مترجمته بأن تخفض الإضاءة فى القاعة ، وقال بصوت رتيب عبارته المعتادة :

ـ « الآن .. نرجوكم الصمت .. »

وهكذا بدأت جلسة المخابيل هذه .. أعرف أن

(السايكومترى) علم ، لكنى لا أقبل هذا النوع من العلوم .. من يدرى ؟ يبدو أننى عملى أكثر من اللازم ..

وتوالت التجارب يومًا بعد يوم ..

حتى وصلنا إلى عملية قراءة البشر .. المفترض أن يجلس اثنان متواجهان ويغمضان العيون ويمسك كل منهما بيدى الآخر ويفكر .. يا سلام ! لا أجد فارقًا هنا بين التجريب العلمى والهيام .. لهذا ولأسباب لاتخفى على أحد أصررت على أن تكون زوجتى (برنادت) هى رفيقتى فى هذه التجربة ..

وهكذا جلسنا متلامسى الأيدى ، ورحت أركز تفكيرى .. لكنى لم أصل لشىء .. كان ذلك الخنزير الأبدى يطارد أفكارى طيلة الوقت ! وأدركت أنه تحول إلى نوع من الوسواس القهرى الذى لا يأتى إلا حين لا أريده .. أما هى فراحت تبتسم فى خبث مغمضة العينين .. ماذا فى ذلك ؟ أنا لا أملك أية أسرار لاتعرفها .. ليس لدى مزاج ولا بال رائق

يسمحان لى بأن ألعب دور الرجل الغامض اللعوب كما يحب كل الأزواج أن يفعلوا مع زوجاتهم .. حتى الرجل الذى يشبه خلد الماء ، والذى لم تعجب به أية امرأة إلا المرحومة أمه .. يصر على أن يبدو أمام زوجته كأنه (دون جوان) الذى تاب أخيرًا ..

لماذا تبتسم إذن هذه الخبيثة ؟

قالت وهى تواصل التأمل :

ـ « أنت تحبنى ولا تعبأ بأية امرأة أخرى .. أنت (رجل امرأة واحدة) كما يقول الإنجليز .. هذا مؤكد .. »

ـ « ماكنت لأحتاج إلى هذا (السايكومترى) لأكتشف ذلك .. »

ـ « وتفكر فى الخنزير كالعادة !! »

هنا ارتجفت .. ربما كانت مصادفة هى تعرف هاجس الخنزير الذى يطاردنى طيلة الوقت ، لكن كونها تقول هذا الآن فقط جعل شعرمفرقى يتصلب ..

★ ★ ★



لماذا تبتسم إذن هذه الخبيثة ؟ : ـ قالت وهى تواصل التأمل !
ـ «أنت تحبنى ولا تعبأ بأية امرأة أخرى» ..

كانت الاختبارات التالية فى أغلبها تدور حول كيس مغلق ..

كانت المترجمة النشيطة تدور علينا كأنها تتسول ، وكانت تطلب من كل منا أن يدس فى الكيس شيئًا دون أن يعرف الآخرون ، ثم بعد ما تنهى الجولة ، تعود وتطلب من كل منا أن يأخذ شيئًا عشوائيًا من الكيس .. عليه بعد هذا أن يتأمل ..

ـ « الآن نرجوكم الصمت .. »

يعلنها الروسى مدوية ، وتهدأ الأضواء ، بينما يتحسس كل منا الشىء الذى فى يده محاولاً الامتزاج به .. التفكير مثله .. مشاهدة رؤى معينة ، وهذا الرؤى لها ارتباط مهم بصاحب الشىء ..

راح كل منا يدون ما شعر به ، ورأيت (برنادت) تكتب فى حماسة .. وأنا الآخر كتبت الكثير جدًا ..

فى النهاية دارت المترجمة علينا تقرأ ما كتبناه .. ثم تسأل وهى تلوح بالشىء :

ـ « من صاحب هذا القلم ؟ »

ترتفع يد تقول إنه لها ..

ـ « هل هذه الرؤى تعنى لك شيئًا ؟ »

أحيانًا تكون الرؤى واضحة مثل صاحب القلم نفسه يكتب به .. وأحيانًا تكون غامضة نوعًا مثل منظر فى الريف فى يوم مطير .. وأحيانًا لاتكون للرؤى علاقة بأى شىء على الإطلاق ..

وجاء دورى فراحت تقرأ ما كتبت :

ـ « أرى صاحب هذا القلم يبتاعه بنصف دولار من متجر فى (نيروبى) .. أراه يكتب به ثلاث رسائل ثم يفقده .. ثم تجده ممرضة فى مستشفاه فتسأل عن صاحبه وتعيده إليه .. إلخ .. إلخ .. »

قصة حياة قلم كاملة على الورق ، ونظر لى الجميع بانبهار .. فهذه أوضح رؤى اليوم ..

قال البروفسور الذى يفهم الإنجليزية :

ـ « ما سر هذه الشفافية المفاجئة ؟ اعتدت أنك معتم كالرصاص .. »

قلت فى خجل :

ـ « السبب بسيط هو أن هذا القلم قلمى ! لقد وضعتـه فى الكيس ثم عاد إلىّ بالصدفة ! »

طبعًا لاداعى لاستكمال المشهد .. كما أنه لاداعـى لحكاية ما حدث فى الأيام التالية ..

* * *

فقط بعد أسبوع آخر أعلن البروفسور أنه انتهى من كل التجارب وأن بوسعنا العودة لقواعدنا ..

* * *



5- عن القياس النفسي ..

كان جالسًا إلى الحاسب الآلى فى المعمل ، حين دخلت إليه فى ذلك اليوم .. كنت مبكرًا عن الآخرين ، وقد طلبت منى (برنادت) أن أسبقها لأنها تتبادل حديثًا مرحًا مع طبيبة كندية أخرى .. فوجدت (سيماكوف) وحيدًا ، وراق لى هذا برغم أننى غير مهتم بالموضوع ككل .. لكنى تذكرت النشوة التى كنت أشعر بها فى طفولتى حين أذهب للمدرسة آخر العام لأكتشف أننى الأحمق الوحيد الذى لم يبق فى داره ليستذكر .. عندها كنت أجد المدرس وحده .. المدرس المهيب الذى يفصلنى عنه حاجز دائم لايزول .. اليوم هو أمامى وملكى وحدى !!

كانت الكتابة على الشاشة بالروسية ، لهذا لم أفهم شيئًا .. لكننى حييته بالـ (داو بروى أوترا) التى حفظتها .. فرد التحية بمثلها وواصل العمل ..

سألته عن نتائج البحث فقال بإنجليزية رديئة كالعادة :

ـ « ليس بعد .. ليس بعد .. أحتاج إلى دراسات إحصائية ، ولا تنس أن العينة قليلة جدًا بحيث يصعب أن تستخلص نتائج منها .. إننى أكرر العمل ذاته منذ عام .. »

ثم ابتسم بخبث وأردف :

ـ « مازلت أحتفظ لنفسى بالحق فى استدعاء أى واحد منكم متى أردت ! »

سألته وأنا أتخذ لنفسى مقعدًا :

ـ « هل تقيس قدراتنا أم تدربها ؟ »

ـ « الاثنان معًا .. إن المنحنيات ترتفع للجميع من تجربة لأخرى .. ربما باستثناء قليلين لايبدو أن لديهم أى مستقبل فى عالم الإدراك الفائق للحواس .. »

كنت أعرف واحدًا على الأقل من هؤلاء القليلين .. لهذا تحاشيت الموضوع بسرعة ، وعدت أسأله :

- « أريد أن أعرف أكثر عن هذا (السايكومترى) .. »

ضحك فى عصبية بصوت غليظ أعتقد أنه خاص بالروس دون سواهم ، وقال :

- « من الخطأ أن يعرف الشخص موضع التجربة تفاصيلها .. هذا يلعب دور الإيحاء .. »

- « لاتنس أننا عائدون إلى بيوتنا ولم نعد مواضيع .. »

هنا دخلت (كاتيا) المترجمة المختبر ، وهى تحمل بعض الأوراق .. فتنهد وأشار إليها وقال شيئًا ما ، فوضعت أوراقها جانبًا وأشعلت لفافة تبغ وقالت لى :

- « إن البروفسور يطلب منى أن أترجم ما سيقول فهذا سيجعل الكلام أسهل .. »

- « وأنا أرحب بهذا .. فأنا أرغب فى الفهم »

أغلق النافذة التى أمامه على الحاسب الآلى وبدأ يتكلم ..

* * *

قال (سيماكوف) :

ـ « كما قلت لك فإن حاسة الـ Psychometry أو (القياس النفسى) سميت بهذا الاسم لأن الطبيبين (بوكانان) و(دنتون) قالا إنها الحاسة التى تعطيك القدرة على (قياس) الوجود النفسى للأشياء الجامدة .. هناك شىء يدعى (السجلات الأكاشية Akashic records) .. وهى موضوع كبير معقد لن نخوض فيه ، لكننا نفترض أساسًا أن حجرًا من العصر الرومانى قد رأى وعرف كل شىء عن الرومان .. وكان رهان الفلاسفة دومًا على أن خبرات هذا الحجر يمكن أن يتلقاها الجهاز العصبى للإنسان ويفسرها .. »

ـ « بعبارة أخرى .. لاشىء يختفى أو يضيع .. إنما يترك بصمة لاتمحى على الأثير إلى الأبد ... »

ـ « هذه النظرية أيضًا تفترض أن لكل شىء حياة روحانية خاصة به .. من ثم تنتقل مشاعر الشخص إلى الشىء الذى يمتلكه .. وهذا الشىء يمكن أن ينقل هذه المشاعر إلى شخص ثان يلامس الشىء .. »

ـ « هكذا يعمل الجسم المادى كجهاز إرسال واستقبال معًا .. »

ـ « لقد رأيت تجربة غريبة حدثت أمامى .. إذ أحضر أحدهم قطعة من القماش الذى كفنت فيه مومياء مصرية قديمة ، وقدمها للوسيط الذى وضعها على جبهته .. فجأة راح يصف مدينة فرعونية ورجلاً فى زورق يبحر فى النيل .. لاحظ هنا أن الوسيط لم يكن يملك أية فكرة عن مصدر قطعة القماش ... »

ـ « قال (بوكانان) إن النساء يملكن القابلية أكثر لامتلاك خاصية الـ (سايكومترى) واعتبرها موهبة خاصة .. بينما اعتبرها من يدعى (كراوتار) شيئًا يمكن لكل إنسان أن يمتلكه إذا امتلك الرغبة والإرادة .. »

سألته وأنا أشعر بأن الأمر كله رخو لين يسيل من بين أصابعى :

ـ « وما هذا الشىء الذى يشعه المرء فيصل للجماد ؟ »

ـ « يسمونها الـ aura[*] ويعتقدون أنها تشع من كل عقل فى كل اتجاه .. وبما أنه لايوجد جسم صلب تمامًا (أنت تعرف أن هناك مسافة بين ذرة وأخرى) فإن هذه الفجوات تتشرب الـ aura من الأشخاص الذين حولها .. »

قلت له فى غيظ :

ـ « هذا الكلام لايمكن إثباته .. إنه نوع من الشعر فهل تعتبره حقائق علمية ؟ »

قال فى برود :

ـ « أنا أحكى لك آراء يا بنى ولا أقول شيئًا عن رأيى الخاص .. ورأيى الخاص لو أردته هو أن هذه التجارب قابلة للقياس والتكرار لكنها غير قابلة للتفسير .. وهذا يتناقض مع تعريفات التجربة العلمية الصحيحة التى يجب أن تكون قابلة للتكرار والقياس والتفسير معًا .. »

(*) الترجمة الحرفية لها هى (الشذى) أو (العبير) لكن هذا لايعبر عن معناها جيدًا ..

ـ « لقد أطلق (كراوتار) على السايكومترى اسم (عين الروح) .. وقال إن مركز هذه العين هو الجسم الصنوبرى فى المخ الذى كان يؤدى عمله ببراعة قبل أن تجعله الحضارة يضمر .. ولهذا يطلق بعض العلماء عليه اسم (العين الثالثة) .. »

ـ « بقى أن تعرف أن هناك وسطاء يعرفهم رجال الشرطة بالاسم ، ويثقون بكلامهم .. وقد استطاع كثيرون منهم معرفة القاتل من منديله أو مديته .. كما وجد كثيرون منهم قبورًا لأشخاص اختفوا دون أثر .. »

هنا قررت أن أسأله سؤالاً كان يحرجنى بعض الشىء :

ـ « وكيف أنت فى الإدراك الخارق للحواس ياسيدى ؟ »

ضحك حين وصلته الترجمة وقال :

ـ « أستاذ النقد الأدبى فى جامعة موسكو لايستطيع

كتابة بيتين من الشعر .. ومدرب فريق البرازيل قد لايستطيع تسديد ضربة جزاء سهلة .. أنا أدرس ظاهرة لاأستطيع التعامل معها .. باختصار أنا لا أملك أية قدرة على الـ PSI »

قلت فى خبث :

ـ « إذن أنت تملك قدرًا هائلاً من التحضر ! »

وساد الصمت ....

ثم بدأت فئران التجارب تدخل ..

بعد دقائق احتشدنا فى مقاعدنا حول الرجل .. صار هذا المشهد مألوفًا أن ترى الرجل جالسًا إلى المكتب ، بينما المترجمة تقف وراءه مستندة إلى الجدار ولفافة التبغ بين شفتيها .. كانت لها عادة أخرى أنها لاتنفض الرماد ، مما يجعلها تبدو كأن قلمًا من الرماد فى فمها .. وهى تترجم دون أن تنظر له بل تنظر لنا بحدة ..

قال لنا :

ـ « اليوم يمكننى القول إن التجربة انتهت .. وهى

ليست بالضبط تجربة بقدر ما هى درس فى استخدام حواسنا .. لهذا أتمنى أن تكتبوا لي وأن تذكروا ما تعلمتموه جيدًا .. لاحظوا أن هناك احتمالاً لا بأس به أن استدعى أحدكم لاستكمال الدراسة .. هناك ثغرات دائمًا .. »

تأفف أحد الأطباء بصوت غال ، وقال :

ـ « لم لا تنتهى كل شىء الآن وننتهى ؟ ليس من السهل أن نقطع حياتنا كلما أردت أنت .. »

قال البروفسور حين وصلته الترجمة :

ـ « أنت بالذات اطمئن .. لن أطلبك أبدًا .. ليس لديك ما تمنحنيه ! »

ضحك البعض فى عصبية .. ثم قال له أحد الجالسين :

ـ « لم نعرف بدقة من يتمتع منا بالموهبة ومن لا يتمتع بها .. »

ابتسم الروسى وقال بطريقته المتئدة :

ـ « إن صاحب الموهبة يعرف ذلك الآن دون شك وهذا يكفينى .. »

ثم أشار إلى (برنادت) وقال :

ـ « هذه هى الأولى على الصف .. هذا يكفى فى الوقت الحالى .. »

احمر وجهها خفرًا وغمغمت بشىء لابد أنه يعنى : ليس إلى هذا الحد .. أو ليس كما تظنون ..

قلت لنفسى إنه لابأس .. على كل حال أنا وهى شخص واحد قانونًا وشرعًا .. يكفى أن يتمتع أحدنا بحواس خارقة للحس بينما الآخر غبى كالسلحفاة ..

المشكلة الوحيدة هنا هى أن علىَّ أن أحتاط لأفكارى من الآن فصاعدًا ! صحيح أننى لا أفكر فى شىء يضايقها لكن من أدرانى ؟ عندها تكفى لمسة واحدة ليدى كى تعرف كل شىء .. من يدرى ؟ ربما كان على كذلك أن أمسح الـ aura من على أقلامى ومفاتيحى وعويناتى .

ترى هل يكفى لإزالة الـ aura أن أنقع حاجياتى فى بعض الخل ؟!

★ ★ ★

6ـ فى (سافارى) ..

كانت عودة مبهجة ..

الحقيقة أن هذا هو الحل السحرى للملل من حياتك .. اتركها ـ حياتك ـ كما هى وابتعد بعض الوقت ، فإن كانت خبرتك مبهجة نسيت همومك ، وإن كانت كئيبة أدركت كم كانت حياتك رائعة .. وفى الحالين تعود منتعشًا كهرة تصحو من نومها ..

فى البداية كانت التحيات ، ثم قيل لى إن (سينوريه) ينتظرنا بفارغ الصبر فى مكتبه ..

دخلنا وتبادلت المزاح الثقيل مع السكرتيرات ، وجرعت جرعة عملاقة من كوب القهوة الذى أمام (جين) ، وبررت ما فعلت بأن القهوة مفيدة لمرض الإيدز الذى أصبت به ، ثم ألقيت بنفسى فى المقعد أمام المدير ، الذى راح يسألنا عن كل شىء .. كان بطبعه نهمًا للمعرفة ، وقد راقت له هذه التجربة لأنه من المؤمنين بوجود مستوى آخر من الطب لم يدون فى الكتب ..

قال لى :

ـ « أعرف عن بعض تجارب السايكومترى ، كما أننى قرأت اسم (سيماكوف) فى أكثر من ورقة علمية .. لكنه لم يتكلم فيها إلا عن الطب النفسى .. الطب النفسى المحترم .. ولو تكلم عن هذا الكلام المائع فى ورقة علمية لما نال إلا السخرية .. »

كنت أصدقه .. فهو مرجع طبى يمشى على قدمين .. إنه مثل (آرثر شيلبى) و(جيديون) وإن لم يكن استعراضيًا هستيريًا كالأول ، ولا يهوديًا غريب الأطوار يكره نفسه والجميع مثل الثانى ..

قلت له :

ـ « أمام العلم الكثير حتى يجد فائدة ما لهذه الأمور .. »

ابتسم فى غموض وقال :

ـ « ليس كما تتصور .. لو أن لدينا طبيبًا بارعًا فى هذه الأمور لأمكننا أن نجرب .. »

ضاحكًا أشرت إلى (برنادت) :

ـ « لم تنتظر وعندك وسيطة ممتازة هنا ؟ »

قالت (برنادت) فى خفر :

ـ « ليس إلى هذا الحد .. »

ـ « بل إلى هذا الحد .. إن الدكتورة (عبد العظيم) قد برهنت عن إدراك فائق للحس لاشك فيه .. »

ـ « إلى هذا الحد ؟ »

قالها وهو ينظر لها فى تركيز شارد الذهن ، وأدركت أنه يفكر فى استغلال هذه الموهبة بشكل ما ..

فى النهاية قال لنا :

ـ « أريد أن نلتقى فى عنبر الأمراض الباطنة غدًا .. ثمة أشياء أريد أن أعرفها بدقة .. »

* * *

(ماجدة بودو) .. فى الأربعين من عمرها .. أم لثلاثة أطفال وكانت دومًا تتمتع بصحة جيدة ، ثم بدأت الحمى

مجهولة المصدر .. فى كل ليلة ترتفع حرارتها حتى التسعة والثلاثين درجة مئوية .. لاتوجد أعراض أخرى .. صورة الدم عادية .. التحليلات المعروفة بحثًا عن الملاريا والكالا آزار والتيفويد والدرن ... إلخ .. كلها سلبية .. حالتها تزداد سوءًا .. وكل حمى تسبب هزالاً واضحًا فى المحموم إذا طالت ..

تتلقى المريضة الآن علاجًا امبريقيًا غريبًا يصلح لأن يكتبه لها فنان سريالى مثل (سلفادور دالى) أومجنون فى مصحة يضع كسرولة مقلوبة على رأسه .. إنها تتلقى علاجًا للخراج الكبدى الأميبى وللملاريا وللتيفويد وللدرن .. إلخ ...

طبعًا هى لاتتحسن .. لايمكن أن يشفى شخص يتلقى هذا الخليط الجهنمى ..

سياسة المستشفى الحالية هى وقف جميع أنواع العلاج والسماح للمريضة بالعودة لدارها .. أحيانًا تشفى هذه الحميات تلقائيًا ..

الخلاصة هى أن هذه الحالة كانت مسمارًا فى نعش الإمبراطورية .. معذرة .. أعنى نعش ثقتنا بمعلوماتنا الطبية ..

وأمامها وقفنا نصغى لكلمات (سينوريه) بينما كان هناك طبيبان مقيمان يراقبان ما يحدث ..

قال (سينوريه) :

ـ « الأمر الآن فى يدك .. لا أطلب تشخيصًا لكن أطلب توجيهًا .. ستخبريننا عن اتجاه النور فى نهاية النفق .. هل هو من الشرق أم الغرب أم الشمال ؟ »

قالت (برنادت) بوجه محمر :

ـ « سيدى .. أنت تبالغ .. لا أملك هذه القدرة ولا أثق بأن أحدًا يملكها .. »

ـ « لهذا لن نعالجها بناء على تكهناتك .. لكننا سنضعها فى الحسبان .. »

فى تردد تتقدم (برنادت) .. تجلس أمام المرأة ..

تنظر فى عينيها الواسعتين البيضاويتين وسط وجهها الأسود .. للمرأة شفتان غليظتان تنفرجان عن تأوه صامت ..

تهمس (برنادت) :

ـ « ليكن .. الآن أرجوكم الصمت .. »

ثم تغمض عينيها وتمسك بيد المرأة ..

* * *

ـ « علينا أن نتذكر أن الرؤى التى رأيناها قد لاتكون بهذا الوضوح .. قد لانفهمها الآن .. قد لانفهمها للأبد .. لكنها العلامة الأولى على أن حواسنا تنفض عنها الصدأ .. سنواصل العمل ولن نيئس .. »

* * *

يسود الصمت ونتبادل النظرات .. عرفت أكثر من نصاب كان يمارس هذه الأفعال والحركات من قبل .. فى مصر زارنا طبيب فلبينى يجرى استئصال المرارة وحصوات الكلى من دون جراحة .. فقط يمرر يده

على بطنك ثم يريك المرارة الملوثة بالدم فـى كفـه .. وبعد ما قبض أتعابه الخرافية وسافر، عاودت الأعـراض مرضـاه فـأجروا الفحوص اللازمـة .. مـاذا تتوقـع ؟ بالطبع كانت المرارة موجودة فى كل مريض كما هى ..

لا أستطيع أن أثق بهذا الضرب من العلاج ولا أؤمن به .. لكن القوى النفسية موجودة وحقيقيـة .. وبـالفعل يمكن لمحاولات كهذه التى يمارسها (سيماكوف) أن تقبض على القتلة .. فهل يمكن أن تقبض على المرض ؟

مـرت دقائق ثم فتحت (برنادت) عينيها .. وتخلت يدها عن يد المرأة ..

همست كأنما تصحو من نعاس طويل :

ـ « رأيت .. رأيت ظهرها واضحًا أمامى .. رأيت فقراته فقرة فقرة ثم توارى كل هذا .. غاب فى ضباب .. »

قال أحد الطبيبين المقيمين وكان بريطانيًا :

ـ « هذا مثير .. أى جزء من الفقرات ؟ »

نظرت له برنادت لتتأكد من أنه لايتهكم، ثم قالت :

ـ « فقرات الصدر .. »

قال (سينوريه) وهو يعقد ذراعيه على صدره :

ـ « هل أجريتم مسحًا للهيكل العظمى ؟ لا ؟ لماذا لاترتبون لواحد ؟ »

قال أحد الطبيبين وهو ينظر للآخر فى نظرة شك :

ـ « سنفعل يا سيدى .. »

* * *

أما (جون جارلونج) فهو شاب فى الثلاثين من عمره .. لاشىء يميزه سوى اكتئاب حاد عنيف مصحوب بنوبات جنون .. نعم .. جنون لأنه هشم عظام زوجته وأنف ابنه فى ثورة غضب غير مفهومة .. لايمكن أن يكون الطقس الحار هو السبب ..

قال الأطباء النفسيون إنهم لايعرفون سببًا لهذه الحالة ، ويخيل إليهم أنه يعانى مرضًا عضويًا ما أدى لهذه النتيجة .. ما هو المرض العضوى ؟ لا أحد يعرف .. إن أكثر الفحوص سليمة تمامًا .. وفيما عدا انخفاضًا ملحوظًا فى ضغط الدم فإن كل شىء على ما يرام ..

وتجلس (برنادت) فى تردد على طرف الفراش ، وتنظر فى عيني الرجل الخائفتين .. إنه واهن القوى لكنى ظللت قلقًا من أن تنتابه نوبة هياج مفاجئة فيهشم أنفها بدورها ..

أمسكت بيده وهمست طالبة الصمت فصمتنا .. وراحت تتلقى الـ aura من مسام جلده ...

همست فى أذن (سينوريه) :

ـ « لو رآنا رئيس مجلس إدارة (سافارى) لرقص طربًا !! »

ابتسم بدوره وغمغم :

ـ « بالتأكيد .. سيعتقد أننى حولت الوحدة إلى خيمة حواة .. لكن لاحظ أننا لن نتخذ قرارات بناء على كلامها .. لو أفادتنا لكان هذا خيرًا وعلينا أن نثبت كلامها بالطريقة العلمية الصحيحة .. »

فى النهاية رفعت رأسها وقالت بصوت مبحوح قليلاً :

ـ « هذا صعب .. لا أرى شيئًا .. »

ثم فجأة أغمضت عينيها من جديد :

ـ « لحظة .. نعم .. أرى كليته .. أرى كتلة سوداء شريرة فوقها ... »

قلت فى غباء :

ـ « لا أفهم .. »

هتف (سينوريه) وهو يحك رأسه :

ـ « (أديسون) .. مرض (أديسون) .. إنها تتحدث عن ضمور الغدة فوق الكلوية .. لم يخطر لنا هذا ببال .. »

ثم أشار إلى الطبيبين آمرًا :

ـ « أريد نسبة (الكورتيزول) فى دم هذا الرجل .. أريدها حالاً »

وبيد رفيقة أشار إلى (برنادت) كى تتبعنا خارج العنبر .. سألته ونحن نتجه إلى الخارج :

ـ « لحظة يا سيدى .. هل يوجد مرض (أديسون) من دون كل الأعراض والعلامات المعروفة ؟ »

- « إن ضغطه منخفض .. ثم لاتنس أنه لايوجد شىء واضح أو شفاف فى الطب .. لو أنك رأيت عشرين حالة تيفويد فلسوف ترين عشرين شكلاً مختلفاً من المرض .. وقد تصرف مرض (أديسون) بهذه الطريقة الغامضة أكثر من مرة .. ثم إن ظاهرة اسوداد اللون لايمكن قياسها فى مريض زنجى أصلاً ! »

نظرت إلى (برنادت) وشعرت بأننى أشفق عليها من أن تتحول من طبيبة بارعة إلى عرافة منكوشة الشعر ، تلبس عشرات العقود حول عنقها ، وتحدق فى بلورة سحرية .. ربما يفيد بعض المرضى من هذا ، لكنى لن أفيد منه خاصة وأنه من المستحيل أن تمارس هذا النشاط العجيب من دون أن تتغير .. حتمًا ستتغير والويل لى أنا ..

* * *

لكننى اعترفت أنها لم تتغير ، ولم يبد عليها على الإطلاق أنها عرفت تجربة كتلك التى مررنا بها ..

هكذا مرت الحياة هادئة مع تلك العزيزة الباسلة .. تعرفون أننى لم أكن ملاكًا طيلة الوقت ، وأن الخلافات كانت تحدث من حين لآخر ، لكن لو نظرت للصورة الإجمالية من بعيد -حتى تختفى البقع السوداء الصغيرة- لأدركت أننا كنا سعيدين حقًا ..

واصلت أنا حملاتى الرهيبة مع مرض (كالا آزار) ، وواصلت هى علاج الأطفال .. لكننا كنا نعرف أن الوقت قد دنا وأننا سنعود إلى (الكاميرون) قريبًا .. وقد رسمت (برنادت) مجموعة من المربعات عددها تسعون على لوح من الورق ، وكلما مضى يوم كانت تسود مربعًا .. ورحنا ننتظر فى لهفة يوم تسود المربعات كلها .. إنها طريقة (روبنسون كروزيه) معدلة قليلاً .. فهذا الأخير كان يرقب تراكم الأيام فى جزع ، أما نحن فنرقب تناقصها فى لهفة ..

ويوم عرف (سينوريه) بهذا النشاط اليومى الصغير ، قال لى ضاحكًا :

- « لم أدر أنك تكرهنا إلى هذا الحد ..

ـ « ليس إلى هذا الحد .. »

ـ « لكن دعنى أخبرك بشىء مهم ، لاتقض حياتك بانتظار أن تنتهى الفترة كذا والفترة كذا .. أن تنتهى فترة الدراسة .. أن تنتهى فترة التجنيد الإجبارى .. أن تنتهى فترة انتدابك فى (كينيا) .. إلخ .. لسوف تجد أن حياتك صارت مجموعة من الفترات يجب أن تنتهى .. وهوب ! تكتشف أنك بلغت نهاية العمر ولما تنعم بحياتك يومًا واحدًا .. »

لم يرق لى كلامه .. لم يرق لى لأنه أدق من اللازم .. لذا سألته :

ـ « وماذا تريد منى أن أفعل ؟ »

ـ « يجب أن تستمتع بكل فترة كأنها هى الصورة الوحيدة النهائية لحياتك .. »

إنه كما عرفت دائمًا خليط عجيب من شاعر وفنان وطبيب .. لكنى فعلاً ـ وهذا يثير ذعرى ـ فقدت القدرة على الاستمتاع بالحياة .. أجمل لحظة فى اليوم

بالنسبة لى هى نهايته .. يبدو أنـه كان لدىّ جهاز استقبال خلقه الله لى .. جهاز استقبال لمتع الحيـاة ، وهذا الجهاز قد فسد أو انتزع منى ...

رباه ! هذه خواطر لن أخبر بها (برنـادت) أبدًا لأنها لاتخلو من إهانة لها باعتبارى غير قـادر علـى الاستمتاع بشىء حتى وهى معى ..

مالم تكن طبعًا تملك الأفكار ذاتها !

ومالم تكن طبعًا قد خمنت ما أفكر فيه بهذا القياس النفسى !

* * *



7 ـ من فعلهـا ؟

لابد أن (دانييل كينياتا) لم يتألم كثيرًا ..

هذا يريحنا على الأقل إلى حد ما ..

تخيل أن تتلقى ضربة قويـة على رأسك بآلة كاتبة ثقيلـة من الطـراز القديـم !! لاوقـت للألـم لأن مركـز الألم نفسه تهشم على الأرجح .. هذا الانتقال الفورى إلى العالم الآخر قد لايكون أليمًا ..

ثم إن قدميه فقدتا القدرة على التماسك فهوى على الأرض .. ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ..

يمكننـا الآن ـ لو أغمضنا عيوننا ـ أن نرى المشـهد كالتالى :

حـارس الأمـن الأسـود بقميصـه الأزرق الملـوث بالعرق يمشى فى الممـر الطويل .. يمر أمام مكتب المدير الذى يفترض أن يكون مغلقًا الآن فى الساعة

الثالثة صباحًا .. لكنه الآن موارب .. ليس مفتوحًا لكنه موارب ..

يمد يده المتوترة إلى الباب ، ويفتحه أكثر فيرى ضوء الكشاف يتنقل بين قطع الأثاث فى غرفة السكرتيرات الواسعة ..

هنا يقرر أن هناك شيئًا ليس على مايرام .. إن رجال الأمن أذكياء دومًا ..

وهكذا يقتحم الحجرة صارخًا :

- « من هناك ؟ »

لابد أنه قالها بالسواحلية لأنه لايتكلم الفرنسية .. لكن الصوت والنبرة يؤديان الغرض على كل حال ..

بالطبع لم يكن مسلحًا .. كان يحمل هراوة وسلطته فقط .. ليس كرجال الأمن فى (سافارى – 4) الذين تعلموا أن المسدس والسروال شىء واحد ..

هنا حدث الشىء المتوقع .. انطفأ الكشاف ..

وإذ راح يبحث عن مفتاح الإضاءة الكهربى فى الظلام بالطبع لم يجده .. لا أحد يجد المفتاح وهو متوتر بهذا الشكل الخطير ..

لكن شيئًا فاته ، هو أنه كان يقف أمام الباب الموارب .. أى أن هيئته كانت واضحة على شكل (سلويت) فى الضوء القادم من الخارج ..

ولابد أنه لم يجد الوقت الكافى ليفهم ، لأن المتسلل حمل الآلة الكاتبة الثقيلة .. الآلة الموضوعة على مكتب (جبن) ، والتى لم تستعملها منذ مائة عام ..

لابد أنه رفعها بكلتا يديه ..

لابد أنه هوى بها على رأس رجل الأمن .. وعلى الفور اختفى اسم (دانييل كينياتا) من أسماء مواطنى (كينيا) ليدخل قوائم الوفيات ..

هذا هو كل شىء .. ولابد أن المتسلل غادر المكان ملهوفًا قبل أن يراه أحد آخر ..

★ ★ ★



لابد انه رفعها بكلتا يديه .. لا بد انه هوى بها على راس رجل
الأمن ..

حين غادرنا غرفتنا فى الصباح كانت هناك حركة غير عادية فى الوحدة ..

قالت (برنادت) فى عدم فهم :

- « ماذا يحدث هنا ؟ »

قلت بلا مبالاة وأنا أغلق الباب :

- « حدث شىء ما .. هذا مؤكد .. ونحن لانعرفه .. »

- « أنت عبقرى اليوم .. »

ولما لم يكن لنا شأن بالموضوع فقد انصرفت هى إلى قسم الأطفال ، بينما اتجهت أنا إلى مكتب المدير لأعرف ما إذا كان علىّ أن أمارس عملية البحث الميدانى اليوم .. وكنت أكره هذا بشدة ، وأفضل لو تركنى وشأنى لأذهب إلى قسم الجراحة ..

لكنى كنت بالفعل أدخل إلى قلب الزحام نفسه ..

رجال شرطة عديدون وأطباء وضوضاء وزحام .. ثم فى النهاية رأيت المبرر الوحيد لهذا كله .. المحفة

التى تتحرك بما عليها من جسد مغطى بملاءة .. هذا واحد يغادر غرفة المدير (بالقدمين أولاً) كما يقولـون فى التعبير الشائع كناية عن الموت ..

سقط قلبى فى قدمى وهرعت أقف جوار طبيب فرنسى يراقب المشهد وهو يلوك اللادن :

ـ « ماذا يحدث ؟ »

ـ « هناك قتيل .. »

ـ « من ومتى وكيف ؟ »

ـ « رجل الأمن (دانييل) .. حدث هذا ليلاً .. أما عن (كيف) هذه فما مبرر كل رجال الشرطة هؤلاء إذن ؟ »

ووسط الزحام بدا لى وجه (سينوريه) الممتقع وهو يتبادل الكلام مع رجل شرطة كينى .. لقد تحقق أسوأ كوابيسه ..

اقتربت منه أكثر واستطعت أن أسمع طرفًا من

الأحداث .. أما عن كيفية اكتشاف الجريمة فعاملة النظافة طبعًا .. يبدو لى أن أكثر جرائم القتل تكتشفها عاملات النظافة ..

قال لى (سنيوريه) وهو يشق طريقه بين الزحام من حوله :

ـ « جريمة قتل .. »

ـ « أعرف يا سيدى .. لقد قيل لى هذا عشر مرات .. »

ـ « لقد فاجأ السارق .. ودفع حياته ثمنًا لهذا .. »

هذا مهم .. إذن الأمر يتعلق بلص .. لص ضُبط متلبسًا ووجد نفسه مرغمًا على أن يخفى جريمة السرقة بجريمة قتل .. هذا يحدث كثيرًا ، والأرجح أن اللص كان فى حالة من الانفلات العصبى التام .. كان يريد الخروج من هذا بأى ثمن ..

هنا تذكرت :

ـ « هل سرق شىء يا سيدى ؟ »

ـ « لم يتسع الوقت .. لقد فر قبل أن يمس شيئًا .. »

ـ « وهل لديك هنا ما يصلح للسرقة ؟ لا أحسبه تسلل كى يسرق مقعدًا أو حاسبًا آليًا .. »

كنت أعرف أنه لا توجد أموال طائلة فى مكتبه .. إن تعاملات هؤلاء القوم تتم بالشيكات وبطاقات الائتمان .. إلخ ... بحيث لا يمكن أن تتوقع أن تجد كيسًا مليئًا بالدولارات أو تجد رواتب الوحدة كلها لو خطر لك هذا ببال ..

ابتلع ريقه ونظر بعين زائغة إلى المحفة التى تبتعد .. ثم قال :

ـ « يوجد شىء .. وهو على قدر من الأهمية ، لكن من يعرفون بوجوده قليلون .. أعتقد أن المتسلل كان يعرف .. »

ـ « هذا يضيق دائرة البحث كما يقولون فى القصص .. »

ـ « ربما .. ربما ؟ »

هنا دنا منه أحد رجال الشرطة الكينيين ، وقال له وهو يجفف عرقه :

ـ « سيأتى رجال من (نيروبى) للبحث .. لكننا لن نجد بصمات على الأرجح .. »

ـ « هذا طبيعى .. الكل يلبس قفازات هذه الأيام .. تبًا للسينما ! »

ثم إن (سينوريه) نادى نائبه، وهو طبيب تركى يدعى (مصطفى نصار) كان يعمل مع (ستيجوود) .. ورأيته ينتحى به جانبًا ويتبادل معه حوارًا هامسًا سمعت منه بعض العبارات الموحية :

ـ « اسمع .. لاقبل لى بهذه المشكلة .. كل هذه التفاصيل .. يجب أن تتولى أنت الأمر .. أرملة الحارس .. التأمين .. انقل ما يلزم ليكون مكتبى إلى غرفة أخرى ما دام البوليس قد احتل هذه بالكامل .. »

سمعت هذا كله وشعرت بالشفقة عليه .. الشاعر الرومانسى والرسام الحالم مطالب بأن يلعب دور المدير الحازم الخبير بالتفاصيل .. أعتقد ـ ولاتحسبنى أمزح ـ

أنه كان يفضل أن يستقيل فى هذه اللحظة بالذات .. فلو ترك وشأنه لأعلن للجميع أن (مصطفى) هو المدير الجديد ، ثم اتجه إلى مسكنه لينام ..

أخيرًا لم أر ما يدعو إلى الوقوف فانصرفت آسفًا ..

يبدو أننى حر اليوم لأفعل ما يروق لى .. وما يروق لى هو شىء واحد : الجراحة ..

* * *

كنت أتناول طعام العشاء فى الكافتيريا مع (برنادت) وطبيبة كندية أخرى ..

كنت قد حكيت لهما ملخصًا لما حدث فى ساعات الليل .. وقد توترت (برنادت) لأقصى حد فقد كانت تعرف (دانييل) وتستريح إليه ..

قالت لى فى حيرة وقد أزاحت طبقها معلنة أن شهيتها صارت ذكرى :

ـ « وما هذا الذى فى مكتب المدير والذى يستأهل السرقة ؟ »

- « لايوجد سوى احتمال واحد .. »

هنـا نظـرت فى حـذر إلى الطبيبة الكندية وفضلت الصمت ..

ثم حركت شفتى دون صوت بالكلمـات الأولـى من الرد ..

هنا ظهر شخص مألوف على باب الكافتيريا ، وكـان متجهًا نحونا ..

هذا (سينوريه) .. لقد بدأ المرح .. إن قدومه إلى الكافتيريـا لحـدث جلـل يسـتحق الذكـر .. مـن المعتـاد ألاترى المدير فى الكافتيريا مع الرعاع من أمثالنا .. لكن (سينوريه) على مايبـدو مصمـم علـى أن يكـون بين البروليتاريا الكادحة ..

نهضت مرحبًا بـه ، ودعوتـه إلـى الجلوس معنـا ، لكنه هز رأسه فى عصبيـة غير راغب فـى الكـلام ، وقال بصوت ثابت مخاطبًا (برنادت) :

- « المريضة (ماجـدا) التى رأيتهـا أمس .. ثمـة

فقرة من ظهرها قد تحللت من جهة الشوكة تمامًا ، وقد وجدنا بروتينات (بنس جونس) فى بولها .. وهذا يعنى .. »

قلت فى دهشة :

- « سرطان النخاع المتعدد Multiple Myeloma .. يا للغرابة ! هذا لم يخطر لنا ببال »

نظر إلى (برنادت) فى إعجاب لم يخفه وقال لها :

- « أنت رأيت ظهرها فى خيالك .. وبالتالى فكرنا لأول مرة فى مسح عظامها .. كان السرطان فى بدايته فلم يعلن عن نفسه إلا بالحمى .. ولولاك لربما كنا أعدناها إلى دارها .. »

قالت (برنادت) وقد احمر وجهها كالصلصة :

- « كان الأمر سيتضح .. وما كان ليظل سرًا .. إن آلام الظهر سوف .... »

- « متأخرًا جدًا .. كنا سنعرف متأخرًا جدًا .. »

قالها وجذب مقعدًا ليجلس وقد شعر بأن الكلام يحتاج إلى جلسة بدلاً من وقفة ..

هنا سألته فى تردد :

ـ « والفتى .. هل هو ؟ »

ـ « ماذا تتوقع ؟ هناك انخفاض شديد فى نسبة الكورتيزول فى دمه .. لقد دمر الدرن غدته فوق الكلوية تمامًا .. إنه مرض (أديسون) بالفعل وإن لم يظهر منه بعد إلا بعض الأعراض النفسية الشبيهة بالجنون .. والواقع أننا حمقى .. الجميع حمقى .. كان لدينا ارتفاع فى نسبة البوتاسيوم ونقص فى الصوديوم ، لكننا لم نهتم بما يكفى بهذه النتيجة .. »

ثم نظر إلى (برنادت) من جديد وأشرق وجهه وهتف :

ـ «أنت كنز يا صغيرتى !! »

كان الأمر صعب الابتلاع بالنسبة لى .. لقد تحولت (برنادت) إذن إلى وسيطة نفسية موثوق بها .. زوجتى التى أعرفها كنفسى تحولت إلى امرأة غامضة .. ربما مخيفة كذلك ..

قلت له فى غيظ لم أخفه :

ـ « سيدى .. إن العلم لايعتمد على الرؤى وأساليب الوساطة هذه .. »

ضرب المنضدة بقبضته وهتف :

ـ « أعرف هذا أكثر منك .. لكن هذه الأساليب السخيفة قد أنقذت مريضين ! مريضين وأنا لست من مدرسة الطب المتعصب الذى يفضل أن يموت المريض بعلاج صحيح على أن يشفى بعلاج خاطئ .. لاتنس أن (برنادت) اقترحت فقط ونحن بحثنا عن الحقيقة بالطرق العلمية المجربة .. »

ثم نظر لها فى إعجاب من جديد وقال :

ـ « بعدما تنتهيان من العشاء أريدكما فى مكتبى .. »

ودون أن يسألنى رفع علبة المياه الغازية التى تخصنى وشرب جرعة منها ، ثم حملها معه وانصرف ..

ولم أكن أعرف أن مشاكلنا على وشك البدء ..

* * *

8ـ التجــــــربة ..

ذهبنا إلى المكتب نجر أقدامنا ..

فى الحقيقة لا أشعر باية رغبـة فى أن نتورط أكثر فـى هذا الموضـوع .. لا أرغب فـــى أن يعتـبر أحـد (برنانت) مجرد وسيطة نفسية أو معالجـة روحانيـة .. هى طبيبة بارعة ولا يجب أن تكون شيئًا آخر ..

دخلنـا لنجد أن مكتـب السكرتيرات قد تحـول إلـى فوضى ، وهذا متوقع طبعًا .. كان هنـاك أربعـة رجـال شرطة وأشياء مقلوبة ومبعثرة ... يبدو أنهـم رفعوا البصمـات كلهـا ، وبالتـالى لم يعد مســرح الجريمـــة ساخنًا ..

بقعة دم ! بقعة دم أسود لونها هناك علـى البسـاط جعلت أحشاءنا تتقلص ..

غريب أمر الدم حقًا .. إنه سائل مفعم بالرمــوز ..

نحن نراه طيلة الوقت فى عملنا .. لكن هناك أكثر من دم .. الدم النابض فى العروق رمزًا للصحة والحياة .. والدم الملقى فى إهمال على الأرض يشى بالموت .. ثمة دم نوجده بأنفسنا فى غرفة الجراحة ولايحرك فينا ساكنًا ، ودم يوجده غيرنا ونشمئز منه كالآخرين ، خاصة حين لايعود بوسعنا أن نعمل شيئًا ..

قال لنا المدير حين رآنا :

ـ « آه ! فرغتما من الطعام ؟ جميل جميل .. تعاليا .. »

كان يتكلم وهو يجر قدميه بين الأشياء التى لاتعرف كنهها والتى تغطى الأرض ، وكان من الواضح أنه لم يدخل مكتبه الداخلى بعد وإنما فضل أن يبقى حيث حدثت الجريمة ..

فى غلظة قال لنا أحد رجال الشرطة شيئًا ما .. لاتوجد ترجمة سواحلية لكن نبرة الصوت وتعبيرات الوجوه لخير مترجم : امش من هنا منك لها ! أو شىء من هذا القبيل ..

صاح (سنيوريه) فى عصبية فى الشرطى:

ـ « كفى ! إننى مازلت سيد مكتبى، ولا أسمح لهذا الاحتلال العسكرى أن يمنع أحدًا من الدخول ! هل تفهم أيها القرصان القبيح ؟ »

ومن جديد كان الكلام بالفرنسية، لكن تعبيرات وجهه ونبراته كانت مفهومة تمامًا لرجال اشرطة ..

قال لنا وهو يجرنا إلى الداخل:

ـ « لقد جلبوه من قريته ـ ذلك الشرطى ـ وأعطوه بندقية وأمروه أن يقف هنا ويقتل من يحاول الدخول .. وهو سيفعل هذا للأبد، حتى لو رأى مجموعة من الأطفال الرضع .. هلمّا ! لاتباليا بهذا القرصان .. »

ـ « سيدى .. إن كنت ترى أن الوقت ليس .. »

ـ « إنه مناسب ! بحق السماء ليس هناك وقت أكثر مناسبة ! »

ثم جلس إلى أريكة هناك، وجلست و(برنادت) إلى أريكة أخرى .. قال لنا وقد لاحظ توترنا العام من الجو:

ـ « هذا طبيعى .. المرء لايتواجد فى مسرح جريمة كل يوم .. لاشك أن هذا لايناسب نفسيتك الشفافة يا دكتور .. »

ابتلعت ريقها وبعد قليل همست :

ـ « دكتور (سينوريه) .. لاأدرى إن كنت أبدو فظة بهذا الكلام أم لا .. لكن الحقيقة هى أننى لا أستسيغ بتاتًا معاملتى باعتبارى وسيطة روحانية أو ساحرة .. »

ابتلع المعاملة الخشنة وقال :

ـ « هذه خسارة كبرى لأننا كنا راغبين فى استعمال موهبتك من جديد !! »

ونظر إلى أعلى وقال :

ـ « لقد طلبت الإذن من العقيد (موادبكيتا) .. »

هنا نظرنا لنرى (موادبكيتا) رجل شرطة الكينى الذى كان أول من اقتحم (سافارى) فى ليلة الانفجارات تلك .. الرجل الذى يتكلم بخطورة وينظر بخطورة

ويأكل بخطورة ويدخل الحمام بخطورة .. الرجل الذى تسيطر عليه فكرة : هذه أمور أمنية لاتفهمونها ولايجب أن تحاولوا فهمها .. من أين جاء ؟ يبدو أنه كان فى المكتب الداخلى ، وكان ـ طبعًا ـ يدس عصا المارشالية تحت إبطه وقد قوس ظهره للوراء مصعرًا خده للناس .. لايستطيع الضابط فى قلب إفريقيا أن يعيش دون عصا مارشالية كما يبدو ..

قلت له ضاحكًا :

ـ « يبدو ياسيدى العقيد أنه بوسعك أن تنقل مكتبك إلى هنا .. إننا نراك أكثر من اللازم هذه الأيام .. »

لم يضحك .. فقط تقلص خداه المليئان بالأخاديد وقال باشمئزاز :

ـ « هذه طبيعة عملنا .. أعمال إرهابية فى مرة .. وجريمة قتل فى مرة أخرى .. »

أردف (سينوريه) وهو ينظر إلى (برنادت) :

ـ « الأمر هين .. خطر لى أننا لن نخسر شيئًا لو طلبنا

منك أن تغمضى عينيك وتتحسسى كل شىء فى مسرح الجريمة هذا .. »

قال (موادبكيتا) فى حزم وشمم :

ـ « نحن رجال الأمن لانثق بأية أساليب غير البحث الجنائى .. لكننا قد نتنازل ونقبل شيئًا كهذا .. نحن لم نضع شيئًا فى الأحراز بعد ، وإن فرغنا من رفع البصمات .. لايبدو أننا سنجد إلا بصمات السكرتيرات على كل حال .. يمكنك أن تأخذى راحتك .. »

قالت (برنادت) فى توتر وهى تنظر لى :

ـ « لكن .. لكن .. من أين أبدًا ؟ »

قال (سينوريه) على الفور :

ـ « هذا هين .. من الآلة الكاتبة طبعًا .. لو كان هناك أثر من الـ Aura على شىء فلابد أنها الآلة الكاتبة .. »

ساد صمت متوتر :

ثم نهضت (برنادت) متجهة إلى الآلة الكاتبة العملاقة ..

كانت موضوعة هناك على مكتب (إيفيلين) القديم .. وكانت هناك لطخة من الدم الجاف الممزوج بالشعر على حافتها المدببة .. هذا الجماد اكتسب معنى رمزيًا هائلاً حتى غدت له حياة خاصة مريعة .. هذا وجود ثقيل لا يمكن تجاهله ..

مدت يديها فى تردد إلى الآلة الثقيلة .. أغمضت عينيها وهتفت :

- « الآن أرجوكم الصمت .. »

ولم يكن من داع لهذا لأن الصمت كان ثقيلاً بما يكفى ..

راحت تتحسس المعدن مغمضة العينين .. أنا أعرف ما يدور بذهنها الآن .. إنها تحاول الكلام مع الآلة .. تحاول أن تسألها عن ذكرياتها .. تحاول اختراق تلك المسام بين الذرات التى منها دخلت الـ Aura منذ صنعت الآلة فى ألمانيا حتى صباح اليوم ..

ورفعت عينى لأرى تعبيرات الآخرين ..

على وجـه (سينوريه) تعبير مضحك من الأمـل المؤلم والانبهار الأبلـه .. علـى وجـه (موادابكيتـا) تعبير أمنـى صارم يوحـى بأن الأمــور كلهـا تحـت السيطرة .. رجال الشرطة ينظرون فى بلاهة إلى هذا المشهد ، وإن كان من الواضح أنهم يفهمونه .. لابد أنهم يبحثون عن مرتكبى الجرائم بطـرق مماثلـة فـى قراهم .. « المـرأة البيضـاء ساحرة » .. هـذا هو ما يقولونـه فـى أذهـانهم الآن .. لمـاذا لانطلـب رأى واحد منهم ، ما دام القياس النفسى يتناسب عكسيًا مع درجة التحضر ؟

(برنادت) نفسـها بدت لى فى قمـة سحرهـا وهى تنحنى مغمضة العينين على الآلة الكاتبة وقـد تقلص وجهها من فرط التركيز وانسـابت خصـلات شـعرها الأشقر تغطـى ملامحهـا .. فخطـر لـى أننـى لو كنـت رسـامًا تأثيريًـا مـن وزن (مونيـه) أو (رينــوار) لأخرجت ألـوان الباستيل فـى هــذه اللحظـة بـالذات لأقتنص تعبير الوجه والإضاءة وكل شىء .

ترى هل انتهت من المهمة ؟

هنا رفعت رأسها ببطء ، وقالت بصوت واهن :

ـ « هل من مكان آخر ؟ »

نظر (سينوريه) إلى العقيد ثم لى وقال :

ـ « ليكن .. أعتقد أن مقبض الباب .. »

دون أن يكمل عبارته اتجهت إلى المقبض وأمسكته بيدها اليسرى ..

★ ★ ★

ـ « اقترح أن تضعوا الشىء فى اليد اليسرى ، لأن الطاقة تدخل الجسم من الناحية اليسرى وتغادره من الناحية اليمنى .. »

★ ★ ★

ـ « علينا أن نتذكر أن الرؤى التى رأيناها قد لاتكون بهذا الوضوح .. قد لانفهمها الآن .. .. قد لانفهمها للأبد .. لكنها العلامة الأولى على أن حواسنا تنفض عنها الصدأ .. سنواصل العمل ولن نيئس .. »

★ ★ ★

وقفت (برنـادت) صامتـة بينمـا نحن ننتظـر لهـا منتظرين ..

ـ « وبعد ؟ »

لم ترد .. بدا أنـها تركز تفكيرها بشدة ..

ـ « (برنادت) .. وبعد ؟ »

هنا رفعت رأسها كأنما أفاقت من حلم ، وقالت :

ـ « فى الحقيقة أعتقد أننى فشلت ، لا أرى شيئًا .. »

عدت أسألها :

ـ « ولا حتى شكلاً ضبابيًا غير مميز ؟ »

قالت فى هدوء وهى تنظر إلى يديها :

ـ « ربمـا كان شـخصًا ملثمًا .. لسـت واثقة .. كان هناك شخص ملثم على الأرجح .. »

بخيبة أمل مغلفة باللطف ، قال (سينوريه) :

ـ « ليكن .. لنقل إذن إن اللص كان ملثمًا .. »

ـ « يبدو هذا . »

قال (مودابكيتا) فى غلظة :

ـ «هذا لايجعلنا نتقدم لحظة .. قلت لك يا بروفسور إنه لاداعى لإضاعة الوقت .. »

ـ « لم نخسر شيئًا على كل حال .. »

وابتسم لنا (سينوريه) وقال وهو يعاود الجلوس :

ـ « يمكنكما العودة .. شكرًا .. »

هززت رأسى وغادرت الغرفة مع (برنادت) ..

كان الليل قد دنا ، وأدركت أننا سننام على الفور دون كلمة أخرى .. لقد كان يومنا مرهقًا ..

★ ★ ★

9- نيروبى من جديد ..

فى الصباح كان أول ما وجدته هو خطاب من (بوريس سيماكوف) ..

من الواضح أن هناك من كتبه له لأنه بإنجليزية ممتازة حقًا .. وقد فتحته ملهوفًا ، وكانت (برنادت) وقتها تعد بعض الشاى لى فى البراد الكهربى الذى ابتعناه من كينيا .. لاتنس أن هؤلاء الغربيين لايشربون الشاى كما نشربه نحن ، بينما القهوة عندهم تشبه الماء .. فى كل لحظة وكل وقت .. وهى قهوة لاتمت لقهوتنا هى الأخرى .. بل هى أقرب إلى حساء الأحذية .. وقد احتاج الأمر إلى فترة حتى علمتها طريقة الشاى المصرى القوى زكى الرائحة ..

قلت لها فى لهجة انتصار :

- « هل تصورين ؟ خطاب من الروسى المخبول ! »

ثم فضضت الخطاب ورحت اقرأ بصوت عال :

ـ « عزيزى علاء .. عزيزتى برنادت ..

ـ « كيف حالكم يا شباب هناك ؟ قلت لكما إننى احتفظ بالحق كاملاً فى أن أطلب أى واحد لاستكمال نتائج البحث .. ولما كنت قد شعرت بأن (نيروبى) راقت لكما ، فإننى لن أشعر بكثير من تأنيب الضمير لو طلبت منكما أن تعودا إلى معملى بالجامعة .. أعرف أننى تلقيت الكثير من اللعنات فى الآونة الأخيرة ، لكنى مطمئن على الأقل إلى انكما لستما من لاعِنىّ ..

ـ « سأكون بانتظاركما فى أى وقت ابتداء من الاثنين .. أى بداية الأسبوع القادم ..

« بإخلاص : ب . سيماكوف »

كانت لهجة الخطاب بعيدة عن الصيغة الرسمية التى توقعتها ، وقد قلت هذا لـ (برنادت) مضيفًا إن الروسى العجوز يعرف كيف يمزح على ما يبدو ..

ـ « فى البداية شعرت بأنى أمقته .. ثم بدأت أستريح له .. »

لم ترد فعدت أقول :

ـ « هذه جاءت فى وقتها .. أراهن على أننا سنمضى الوقت فى رحلات مسلية ، إلى أن يأتى وقت العودة إلى دارنا .. هذا يروق لى .. »

من جديد لم ترد .. فقلت :

ـ « هل تشربين بعض الشاى معى ؟ »

ـ « لا .. »

ـ « إذن قهوة ؟ »

ـ « قلت لك لا .. »

شعرت بخجل من تبرمها .. فى الواقع هى ثقيلة الظل اليوم .. إن مُنحناها النفسى فى الحضيض كما هو واضح .. الدورة النفسية والجسدية والعاطفية لها لحظات تصل فيها الذروة ولحظات تصل فيها إلى الحضيض ..

قلت لها :

ـ « لماذا لاتردين ؟ »

ـ « لقد رددت .. قلت لك لا . »

ـ « (لا) فقط ؟ هذا ما يسمونه الكلام بالقطـارة .. أنت تعطين الردود على قدر الأسئلة بالضبط .. لاتضيفين تعليقًا ذكيًا ولا مرحًا ولا أى شىء .. »

صاحت فى عصبية وهى تضع كوب الشاى أمامى :

ـ « لكنى أردّ .. لا تتوقع أن أقف على يدى وأؤدى حركة (أكروبات) تعبيرًا عن انبهارى بكلامك .. »

عدت للصمت .. واحمرت أذناى على الأرجح لأننى شعرت بهما كقطعتين من الفحم على جانبى رأسى .. وللحظة كرهتها لأنها جعلتنى أكره نفسى .. ثم بـدأت شرب الشاى ونسيت الأمر برمته ..

على أننى لمحت وجهها فأدركت أنه منتفخ متـدرن كالقلقاس .. وثمـة بطنـا ضفدعين تحت عينيهـا ..

أما أنفها فأشبه بثمرة كرز كبيرة .. من قال إن هذه الفتاة جميلة ؟

ـ « ألم تنامى أمس ؟ »

ـ « نعم »

ـ « ولماذا ؟ »

ـ « من حقى ألا أنام إذا أردت .. »

تبًا لهن ! يعرفن جيدًا كيف يجعلننا نبدو كأطفال سخفاء مزعجين .. بينما هن ! هن المشغولات بعظائم الأمور المهمومات بمصير البشرية ذاتها .. هن اللاتى يملكن شهوة إصلاح العالم ، ويعرفن أسرار الرياح ومايقوله البلبل فى أغنيته الحزينة ..

هذه هى الحقيقة .. (برنادت) امرأة .. وكنت قد نسيت هذا .. امرأة تغضب بلا سبب وتثور بلامبرر .. ولها تقلباتها النفسية العاصفة التى لايمكن فهمها .. « المطر يهطل دائمًا بعد العواصف » .. هذه قالها (سقراط) لتلاميذه حين سكبت زوجته وعاء الماء القذر على رأسه بعد غضبة غير مفهومة ..

(برنادت) امرأة وكنت قد نسيت هذا، حين حسبتها قطعة من الذكاء الأنثوى الحساس الذى لايخطئ.. والواقع أن هذا الذكاء ـ على ما أعتقد ـ لم يوجد إلا فى مخيلة الحمقى..

كانت هذه تجربتى الأولى مع عاصفة كهذه، لهذا نهضت من دون كلمة وارتديت المعطف عازمًا على ألا أعود للغرفة إلا حين تحترق النجوم وتجف المحيطات..

* * *

فى الأيام التالية القليلة ازداد الأمر سوءًا..

كانت لاتنظر لى على الإطلاق وترد بكثير من الشح.. وهى طريقة تجيدها النساء كى يصبننا بالجنون.. أنت لاتستطيع اتهامها بأنها لاترد عليك، لكنك كذلك لاتشعر بأنها ردت..

وكان وجهها فى كل صباح يذكرك بضفدع مصاب بسرطان لمفاوى.. من الجلى أنها لاتنام أو تنام بعسر بالغ.. وقد فشلت كل محاولاتى لفهم ما يضايقها..

هل هو الحمل ؟ وارتجفت لهول الفكرة .. مازلت أعتبر نفسى طفلاً ، فكيف أصير مسئولاً عن طفل ؟!

سألتها عن ذلك ، فقالت فى سماجة :

ـ « ربما .. كيف لى أن أعرف ؟ »

قلت فى غيظ :

ـ « ياسلام ! أنت طبيبة وقبل هذا كله امرأة .. لاتوجد هرة فى زقاق تحترم نفسها لاتعرف إن كانت حاملاً أم لا . »

ـ « أنا لست هرة فى زقاق .. »

وهكذا انتهت المحادثة عند هذا الحد ..

وخطر لى أن الإسراع بالسفر إلى (نيروبى) قد يحسن الأمور قليلا .. لابد من بعض التغيير ..

وفى الصباح دخلت مكتب المدير ، واتجهت إلى السكرتيرة (جين) التى كانت منهمكة فى الكتابة على منسق الكلمات ، وشعرت بى فرفعت عينها تحوى وهتفت :

ـ « رباه ! أنت فى أسوأ حال ! تبدو مثل .. مثل .. »

وفكرت بحثًا عن تشبيه ، ثم قالت :

ـ « تبدو كضفدع مصاب بسرطان لمفاوى ! أو ربما مثل درنات القلقاس ! »

أشعر بأننى سمعت هذا التعبير من قبل .. ولكن أين ؟

ومددت يدى لأشرب جرعة كبيرة من كوب قهوتها وغمغمت :

ـ « أنت تعرفين أن القهوة مفيدة لمرضى الجذام .. هل المدير موجود ؟ »

ودون أن انتظر ردها اقتحمت المكتب ..

كان المدير منهمكًا فى محادثة هاتفية .. فانتظرت حتى أنهاها ، وابتلعت فى صبر رأيه المبتكر فى أن وجهى صار يشبه القلقاس .. ثم أخبرته أننا نريد الذهاب إلى (نيروبى) بأسرع ما يمكن ..

ـ « هل من أخبار جديدة عن القتل ؟ »

قال فى ملل ، وهو يفرك عينيه :

ـ « لا أخبار .. ماذا تتوقع ؟ قاتل لم يره أحد ويرتدى قفازات ، ولم يسرق شيئًا .. ثم إن رجال الشرطة هنا ليسوا بالضبط رجال (سكوتلانديارد .. باختصار لا يوجد أى خيط .. إن هذه القضية ستحفظ على الأرجح .. »

ثم مد كفه المفتوحة لى .. غريزيًا مددت يدى لأتلقى ذلك الشىء فى كفى .. كان قفازًا من الصوف مطويًا كما نطوى الجورب ..

قال وقد فهم حيرتى :

ـ « وجده عامل النظافة فى سلة المهملات الموجودة خارج المكتب .. واضح أن القاتل تخلص منه بمجرد الخروج كى لا يلفت الأنظار .. هذا هو المبرر الوحيد لوجود هذا القفاز هنا حيث لا توجد أقسام طبية فى هذا الجزء .. لقد انتهت الشرطة من فحص كل شىء فلن يفيدهم أن يجدوا هذا .. »

قلت وأنا أمسك القفاز فى توتر :

ـ « لكن .. البصمات ؟ إنها قد ؟ »

ـ « بصمات على قفاز من صوف ؟ إن الرجل اختاره لهذا خصيصًا .. »

شعرت بالفعل بأن القفاز قد صار ثقيلاً فى يدى من فرط أهميته الرمزية .. لقد كان يلف يدى قاتل .. ولا أدرى لماذا دسسته فى جيبى .. كأنه ذكرى لا يجب أن تزول .. ثم غيرت الموضوع ..

ـ « وقائمة المشتبه فيهم ؟ الذين يعرفون بوجود ذلك الشىء الثمين فى مكتبك ؟ »

نظر لى فى حيرة بعض الوقت ، وهتف :

ـ « أنت لا تعرف أن هناك شيئًا فى مكتبى .. »

ـ « أنت قلت لى صبيحة الجريمة .. »

قال فى توتر :

ـ « على كل حال لم يعد هنا .. بالمناسبة كل من

يعرفون بوجود هذا الشيء لديهم حجة غياب Alibi قوية .. »

طبعًا لم أخبره أننى أعرف ـ تقريبًا ـ كنه هذا الشيء .. مشكلته أنه ينسى ، ومشكلتى أننى لا أذكر ما كنت أفعله وقت الجريمة .. ليست لدى حجة غياب وهذا قد يجلب على رأسى تعقيدات لا داعى لها .. هذا لن يعطل العدالة كثيرًا ما دمت أعرف جيدًا أننى لست السارق ولا القاتل ..

يقولون فى القصص البوليسية إن عدم وجود حجة غياب قد يكون أدل على البراءة .. أما القاتل الحقيقى فيحرص على أن يحتفظ معه بتذكرة سينما لحفل يعرض فى أثناء الجريمة .. يحتفظ بمحضر شرطة لمشاجرة فى أثناء الجريمة .. يوقع فى سجل زوار المتحف ساعة الجريمة .. يأتى بعشرة شهود يقسم كل منهم إن المتهم كان معه ساعة الجريمة ... باختصار أن حجج الغياب التى لا تدحض قد تدل على التهمة أكثر مما تنفيها .. بينما البرىء يتصرف ببساطة وسذاجة من لا يتوقع سوءًا ..

قلت لـ (سينوريه) من جديد :

ـ « الآن هل تسمح لنا بالسفر ؟ »

قال وهو شارد الذهن تمامًا :

ـ « كما تريدان .. »

★ ★ ★

هذه المرة لم يكن هناك الجو المرح الطلق الذى ميز رحلتنا السابقة إلى (نيروبى) ..

لقد كانت (برنادت) شخصًا آخر ..

فى ليلتنا الأولى رقدت فى الفراش فى غرفة الفندق ، ونمت أو تهيأت للنوم ، ولكن خواطر حياتى راحت تتغص على من حين لآخر .. وكانت (برنادت) بالطبع تنام فى الطرف الآخر من الفراش .. عند أبعد نقطة يمكن للمرء أن ينام فيها .. وكأنها مضطرة لأن تشارك ظربانًا فراشه لمجرد أن النوم على الأرض أمر غريب نوعًا ..

سمعتها تنهض .. سمعت أنفاسها .. سمعتها تحاول استنشاق المخاط الذى يوشك على أن يسيل من طاقتى أنفها .. إنها تبكى !

هى ذى تقترب .. هى ذى تجلس جوارى .. هذا هو الوقت المناسب .. ستهمس لى معترفة بكل شىء وهى مطمئنة إلى أنى لا أسمع .. ستقول أشياء على غرار سامحنى يا (علاء) .. أنا أحبك كثيرًا ولكن ....

ولكن هذه هى ما أبحث عنه : « ولكن أنا أحب شخصًا آخر .. »

أو « ولكن أنا لا أحب الفاصوليا مثلك .. »

أو « ولكن رائحة جواربك تنغص حياتى .. »

أو « ولكن إصابتك بالسرطان التى أخفيها عنك تجعل الحياة صعبة .. »

أو « ولكن إصابتى بالسرطان التى أخفيها عنك تجعل الحياة صعبة .. »



هى ذى تقـرب .. هى ذى تجلس جـوارى .. هذا هو الوقت المناسب !..

أو « ولكن أنا أكره خالتك جدًا .. »

المهم أن أتظاهر بالنوم وأصغى جيدًا .. كنت أفشل دومًا فى خداع أمى حين أتظاهر بالنوم العميق فى وقت المدرسة ، خاصة فى برد الشتاء والأمطار تنهمر بالخارج ، وكانت تدنو بوجهها من وجهى وتصغى بخبث لأنفاسى .. ثم تأتى اللحظة .. لابد منها .. لابد من رجفة فى ركن فمى أو حركة عصبية للجفنين .. عندها تطلق صيحة النصر ، وتزيح الغطاء عنى وهى تدغدغنى بخشونة صائحة :

ـ « لكنك متيقظ ! أنت متيقظ ! أيها الخبيث ! هلم .. لن يفلح شىء فى جعلى أتركك تنام .. »

الآن يجب أن أخدع (برنادت) .. يجب ..

جلست على طرف الفراش كما قلت .. ثم مدت يدها الباردة وأمسكت بيدى .. وكفت عن التنفس ..

كان تأثير هذا فى الظلام غريبًا ..

لماذا تفعل هذا ؟؟

* * *

ـ « علينا أن نتذكر أن الرؤى التى رأيناها قد لاتكون بهذا الوضوح .. قد لانفهمها الآن .. قد لانفهمها للأبد .. لكنها العلامة الأولى على أن حواسنا تنفض عنها الصدأ .. سنواصل العمل ولن نيئس .. »

* * *

ـ « إن صاحب الموهبة يعرف ذلك الآن دون شك وهذا يكفينى .. »

ثم أشار إلى (برنادت) وقال :

ـ « هذه هى الأولى على الصف .. هذا يكفى فى الوقت الحالى .. »

* * *

إنها تحاول أن تقرأ ما بداخلى ! تحاول أن تتشـرب الـ Aura من مسام جلدى !

ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

هنا فقط لم أعد التحمل أكثر ..

نهضت من رقادى المزعوم صائحًا :

ـ « والآن هل لى أن أفهم معنى هذا كله ؟! »

* * *

10 ـ أنـت .. انـت !

كانت اللحظـات التالية هى مهرجان الدموع لوكنـت تفهم ماتعنيه ..

كـانت جالســة علــى الأرض فــى العتمــة متربعــة الساقين ، وقد غطت وجهها وراحت تبكى..

صحت فيها فى غضب وأنا أجلس جوارها :

ـ « هل لى أن أفهـم شيئًا ؟ يبدو لى أننى الحمـار الوحيد فى هذه المدينة .. »

أخيرًا استطاعت أن تقول من بين دموعها :

ـ « إنه أنت .. أنت من قتل (دانييل كينياتا) !! »

* * *

ـ « لماذا يا (علاء) ؟ لماذا يا أحمق ؟ »

أمسكت بكتفيها وهززتها وقلت من بين أسنانى :

ـ « لنكن واضحين يا عقل الدجاجة .. أنا لم أقتلـه .. وأنا واثـق من هذا .. فهل يمكن أن تكفى عن هذه الدموع البلهاء وتحدثينى عن السبب .. حدثينى عن الخرافـة التـى تسللت من ثقوب عقلـك المريـض ، لتنسـج نسيج العنكبوت هنـاك ، وتصنـع هذا البيـت الهائل من التفاهات والسخف والغباء ! »

قالت من بين الدموع والشهقات :

ـ « كـان كل شىء واضحًا لى مـن البداية .. منذ أمسكت بالآلة الكاتبة رأيت بوضوح تام وجهك ، وقد بدت عليـه علامـات الشراسـة .. كـانت اوضـح رؤيـا رأيتها منذ عرفت القياس النفسى .. حتـى حين لمست المقبض رأيتك بجلاء كأنك فى صورة فوتوغرافية .. »

هززتهـا أكثر ، فلـو أنهـا كـانت لبنًـا لتحولـت إلــى قطعة جبن حالاً ، وقلت :

ـ « تشكين فى استنـادًا إلى هذا الهراء ؟ »

ارتجفت شفتها السفلى وهمست :

ـ « ليس هراء .. ليس هراء .. دعوت اللّه كثيرًا أن أكون مخرفة .. لكننى أعرف جيدًا أن حاستى لاتخيب .. لقد جربت نفسى واتضح فى كل مرة أننى محقة .. »

ثم أضافت وقد بدأ المخاط يسيل من أنفها مما جعل منظرها محببًا :

ـ « تذكر محادثتى معك عن المال .. وعن الإغراء .. لقد قابلت أنت امتحانك الخاص وفشلت فيه .. »

* * *

ـ « إن المال يحل مشاكل كثيرة .. فكرى فى بيت ذى حديقة فى أهدأ موضع من العالم .. فكرى فى بحر لايبعد إلا عشرين مترًا .. فكرى فى نزهة فى (سنغافورة) او الهند او البرازيل ، فكرى فى يخت خاص وطائرة رياضية و ... فكرى فى أى شىء غير هذا السجن الذى نعيش فيه .. إننى بشكل ما أفهم (ستيجوود) حتى لو كان قد بالغ بعض الشىء .. »

« أنت تعرفين من أين يأتى اللصوص والمختلسون والقتلة ! إنهم من بيننا .. إنهم نحن ! هؤلاء أشخاص وجدوا الفرصة كاملة فأدركوا أنهم أضعف مما تصوروا .. أدركوا أنهم لم يكونوا قط شامخى الأخلاق كما حسبوا .. »

* * *

« لاتدخلنا فى تجربة ، ولكن نجنا من الشرير .. »

* * *

كنت الآن ارتجف أنا نفسى ..

من الحماقة أن يكلم المرء نفسه أمام النساء .. من الحماقة أن تتفلسف وتستعمل الموضوعية معتقدًا أنك تحدث صديقك الفيلسوف .. هذه النقاط سوف تستعمل ضدك يومًا ما ..

قلت لها وأنا أجلس مرهقًا على الأرض :

ـ « هل هذا دليل كاف برأيك ؟ »

ـ « لاتنس أنك تعرف الشيء الذى كان فى مكتب المدير .. بل وهمست لى بالحروف الأولى منه .. إنها تلك المجموعة باهظة الثمن من دبابيس الراديوم فى صندوقها الرصاصى .. لقد خشى الرجل أن يتركها فى أى موضع من (سافارى) إلا فى مكتبه شخصيًا .. لاتنس أن أى لص عادى لايعرف قيمة شيء كهذا ، فلن يسرقه إلا شخص يعرف ما يفعله .. »

ـ « وهذا فى رأيك دليل كاف ؟ »

ـ « لماذا غادرت غرفتنا فى الثانية صباحًا ولم تعد إليها إلا فى الثالثة والنصف ؟ »

ـ « ذهبت الى قسم الطوارئ لأجلس مع (هوفمان) قليلاً .. ليست هذه المرة الأولى .. أحيانًا اشعر بأرق بينما تغطين أنت فى النوم كالدب القطبى .. »

ـ « من سوء الحظ أننى لم أكن دبًا قطبيًا وقتها ! »

ـ « إذن أنا ذهبت للسرقة والقتل ، ثم عدت الى غرفتنا لأنعم بنوم هادئ .. »

ـ « هذا ما يبدو لى .. »

هنا كنت قد فقدت القدرة على الجلوس فرقدت على ظهرى ناظرًا للسقف برغم أن الظلام كان شبه دامس .. وقلت لها :

ـ « هل تجدين أن ما قلت كاف لاتهامى بالقتل ؟ »

ـ « غير كاف .. ولن تقبله أى محكمة .. لهذا لم أتكلم .. لهذا طويت صدرى على السر الرهيب .. لكنى فى محكمة وجدانى .. وجدتك مدانًا بالجرم المشهود .. »

ساد الصمت لبضع دقائق ..

ثم إننى نهضت فجلست على الفراش فى وضع الاحتباء ، وقلت ضاغطًا على كلماتى :

ـ « لقد أصغيت لكل كلمة مما تقولين .. ولاتهمنى حججك لأننى أعرف من أنا جيدًا .. أنا لم أقتل الرجل ولم أحاول السرقة .. لكننى سأحل الأمر حين نعود إلى (سافارى) .. أولا سأسلم نفسى للشرطة وأخبرهم بكل هذه (الأدلة) ضدى كى يفتشوا عن الحقيقة .. »

رفعت رأسها فى دهشة وهتفت :

ـ « أنت أحمق .. إنهم سيطيرون طربًا بك .. فهم بحاجة إلى أى متهم .. إن بضع صفعات ستجعلك مستعدًا للاعتراف بقتل (يوليوس قيصر) نفسه »

ـ « أعرف هذا.. وبما أنك واثقة مما تقولين ، فلا توجد مشكلة.. سيلقى المذنب عقابه ..

واستلقيت على الفراش معلنًا أننى راغب فى التوبة لكنى واصلت الكلام :

ـ « أما الخطوة الثانية فهى أن ننفصل .. ما دامت هذه الأفكار قد جالت فى ذهنك ، بعد كل ما عشناه معًا ، فلم يعد مكان تلك فى حياتى .. لقد انتهت قصتنا .. ويؤسفنى أنها كانت قصيرة جدًا .. »

وأغمضت عينى ..

ليست (برنادت) هى الوحيدة التى تجيد فن البكاء ليلاً .. لكن بعض قطرات الدمع على الوسادة لن تؤذى أحدًا ..

وللمرة الأولى منذ زواجى شعرت بأننى وحيد .. وحيد جدًا .. أى سخف اقنعنى أن وحدتى أنتهت وأن لى شريك روح ؟ نعم أنا وحيد ما دمت بعيدًا عن أمى وأهلى .. وحيد حقًا فى بلد غريب وسط أشخاص يتكلمون بلغات غريبة ويأكلون أشياء أغرب ، وليست هذه الشقراء التى هى زوجتى باستثناء ..

« تعالي لى يا امه » .. من السخيف والمضحك أن أقول شيئًا كهذا ، لكننى ظللت همسًا أردد هذه العبارة حتى غبت عن الوعى ..

* * *

ـ « ولكنكما تبدوان لى فى أسوأ حال ! »

قالتها المترجمة عن البروفسور (سيماكوف) الذى راح ينقل عينيه بيننا فى حيرة ..

كنا جالسين على مسافة خمسة أمتار لانتبادل حرفًا واحدًا ، وقد قطب كل منا جبينه وشفتيه وكل شىء فى وجهه .. لقد مرت علينا ساعة كاملة فى المختبر دون أن نظهر علامة واحدة على المرح ..

قلت له فى وجوم :

ـ « هذا لطيف منك .. »

قال وهو يعقد كفيه :

ـ « الحقيقة أننى لاحظت فى المرة السابقة أنكما زوجان متحابان إلى أقصى حد .. وقد خطر لى أن أجرى بعض تجارب السايكومترى التى تستند إلى وجود عاطفة قوية بين الموضوعين .. لكن .. فى الواقع .. لا أدرى لماذا أشعر ببعض القلق بصدد صحة هذا الفرض .. »

قالت (برنادت) بوجه متصلب كالصخر :

ـ « لاشىء من هذا القبيل .. نحن فى أحسن حالاتنا العاطفية .. أليس كذلك يا (علاء) ؟ »

قلت بوجه أكثر تصلبًا :

ـ « بلى .. بلى .. سنموت عشقًا لو زاد الأمر على هذا .. لنقل إننا نجيد إخفاء عواطفنا .. »

نظر لنا فى شك ، كأنما يقول :

ـ « ليكن .. ليكن .. ربما أنا أحمق .. »

وبدأ يحاورنا حوارًا طويلاً مملاً لا أذكر منه شيئًا ..

بعد قليل اعتذرت (برنادت) لأمر ما ، وانصرفت على حين بقيت مع الرجل والمترجمة .. هنا بدا كأنما وجد الفرصة سانحة أخيرًا فسألنى بكلماته الروسية المميزة المفعمة بالراء :

ـ « والآن .. ماذا حدث حقيقة ؟ هل تم استبدالكما ؟ »

قلت له فى ضيق :

ـ « هذا السايكومترى الذى اخترعته أنت .. لقد دمر حياتينا ؟ »

راح ينظر لى فى اهتمام خارق للحواس ، ثم سألنى :

ـ « كيف ؟ »

نظرت للمترجمة التى ترمقنى فى فضول .. بدا لى من السخف أن أتكلم عن سر فى وجود مترجم ، ثم قررت أن أعتبرها كما هى فعلاً .. آلة ترجمة لامشاعر لها ولاخطر منها .. ولا أدرى متى بدأت أحكى القصة كاملة ..

* * *

عادت (برنادت) فتوقفت عن الكلام ، لكن الرجل قال بصوت عال :

ـ « تعالى يا دكتورة .. إن القصة التى يحكيها زوجك غريبة حقًا .. »

أدركت على الفور موضوع كلامنا فقالت فى برود وهى تتخذ مقعدًا ، وتريح ذقنها على ظهر مقعد آخر :

ـ « إنها كذلك .. »

أردف الرجل ضاحكًا :

ـ «ليس ما تقولين دليلاً على شىء .. أنت لم تصلى

لهذه الدرجة من الخبرة بعد .. أنت موهوبة لكن ما من رجل شرطـة يمكن أن يقصدك طالبًا رأيك .. تحتاجين إلـى عشـرة أعوام مـن التركيز إلـى أن تصلـى لهـذا المستوى .. »

قالت فى حزم :

ـ «لكنى رأيت .. رأيت .. وهذا كاف بالنسبة لى .. »

ثم أردفت :

ـ «لقد شخصت حالتين مرضيتين غامضتين بمجرد إمساك يدى المريضين .. إننى بالفعل أملك الموهبـة .. وحين أمسك بسـلاح الجريمـة فـأرى وجـه زوجى .. حسن .. ألا يعنى هذا شيئًا ما ؟ »

ـ «يعنى ألف شىء ما .. »

ثم أشـار لنا كى ندنو منه .. وضع يده اليمنى على عنقى ويده اليسرى على عنقها وقرب رأسينا ، حتـى إننى توقعت أن يضرب رأسينا ببعض على سبيل المزاح

كما كنا نفعل فى المدرسة .. أليس اسم هذه الضربة (روسية) والرجل روسى ؟!

لكنه قال همسًا بالإنجليزية ومن دون المترجمة :

ـ «دعانى أقل لكما شيئًا مهمًا .. لقد قلت لكما إننى لا أجيد فن (السايكومترى) .. ألم أقل هذا ؟ »

قلت :

ـ «بلى .. وقلت إن أستاذ الأدب ليس بالضرورة شاعرًا جيدًا .. »

ابتسم وهمس :

ـ «حسن .. كنت أكذب ! »

* * *

11ـ فى السجلات الأكاشية ..

قال (بوريس سيماكوف) بالإنجليزية حين جلسنا إليه فى صباح اليوم التالى :

ـ «لاحظتما أننى بدأت بإجراء بعض الفحوص على الدكتورة (عبد العظيم) .. لقد قمت بأخذ عينة من دمها وبولها .. إننى راغب فى الاطمئنان إلى صفائها الجسدى أولاً .. وهذا شىء روتينى على كل حال .. لكن هذا ليس كل شىء .. »

وفكر قليلاً ثم أضاف :

ـ «السؤال الأهم الآن .. هل لدينا شىء يمت لمسرح الجريمة بصلة ؟ »

تبادلت النظرات مع (برنادت) ربما للمرة الأولى .. هذا سؤال سخيف .. فالمرء لايمشى حاملاً جزءًا من مسرح الجرائم التى يقابلها .. وعلى كل حال هذه الأشياء تخص رجال الشرطة ..

هنا مدت (برنادت) يدها في حقيبتها الصغيرة، وأخرجت شيئاً ..

قالت وهي تلوح بالقفاز :

ـ «هذا كان مستعملاً في الجريمة .. أنا متأكدة !»

ثم نظرت إلى وقالت بنفس الطريقة الباردة كالثلج :

ـ «نسيت هذا الدليل الجديد .. كان في جيبك .. وجدته وأنا أعد لسفرنا إلى (نيروبى) !»

ـ «هذا طبيعى .. المدير نفسه قد أعطانيه ..»

لم ترد وناولته لـ (سيماكوف) .. وضعه في يده اليسرى، وراح يعتصره في نهم بضع دقائق .. كأنما يستنطقه أسرارًا غاية في العذوبة، ثم سألها :

ـ «هل جربت السايكومترى عليه ؟»

ـ «لا .. لم أختل بنفسى قط منذ وجدته ..»

بدأ يتكلم بالروسية هذه المرة، وكانت المترجمة

تحاول بصعوبة اللحاق بكلماته السريعة .. حتى إنها سعلت من فرط ما ابتلعته من دخان التبغ ..

ـ «دعانى أحدثكما الآن عن شىء ألمحت إليه فيما سبق ، لكنى لم أشرحه بالتفصيل .. كل وسيط يعرف ما هى السجلات الأكاشية .. إنها ـ فيما يقال ـ نظام ملفات كونى يسجل كل شىء وكل كلمة وكل فعل .. ويتصرف كالعقل الباطن فى احتوائه على ذكريات لايمكن نسيانها .. هكذا قال (فرويد) مرارًا .. العقل الباطن يذكر كل شىء .. من مذاق أول رضعة أخذتها ، وحتى عدد درجات السلم الذى صعدتما فيه إلى هذا المختبر .. »

« يزعمون أن الأحداث تطبع على مادة تسمى (أكاشا) .. ويزعمون أنه من الأكاشا ولدت العناصر الأساسية كالنار والهواء والأرض والماء . طبعًا هذا كلام فلسفى لا أساس له من الصحة .. أحيانًا يسمونها (العقل الكونى) أو اللاوعى الجمعى .. »

« هناك من يعتقد أن هذه السجلات قابلة للقراءة فى مراحل من الوعى كالنوم والتأمل . ويعتقد اليوجيون أن هذه السجلات يمكن البحث فيها فى حالات معينة من النرفانا .. »

قلت له فى ضيق :

ـ « وما علاقة هذا بكلامنا ؟ »

ـ «أنا سأدخل السجلات الأكاشية لمعرفة كل شىء عن صاحب هذا القفاز .. »

قلت له :

ـ «فهمت أنك لاتصدق بوجود هذه السجلات .. »

ـ « أصدق بوجودها يا بنى .. لكنى لا أعرف لها تفسيرًا .. هذا فارق واضح .. »

ثم مد يده إلى المحقن وناولنى إياه بعد ما استوثق من جرعة السائل به ، وقال :

ـ «هذا هو (بنتوثال الصوديوم) .. ليس الأمر

متعلقًا بمصل الحقيقة ، لكنى بحاجة إليه كى أصل إلى حالة شبيهة بحالة (النرفانا) .. سيكون سُباتى مزيجًا من النوم والوعى وفقدان الإرادة .. ستحقننى به وريديًا ببطء .. أنت قلت لى إن عندك فكرة جيدة عن التخدير »

ابتسمت ابتسامة مريرة بمعنى أن هذا التشكك إهانة ..

نزع قميصه ليجلس عارى الجذع ، وبدأ يوصل الأقطاب إلى صدره ..

تـوت ! تـوت ! تـوت !

قال لى وهو ينظر إلى شاشة المرقاب (مونيتور) :

ـ « مادمت تعرف التخدير فأنت قادر بالطبع على ملاحقة هذا المرقاب .. لو لاحظت اضطرابًا بطينيًا أو تسارعًا فى الضربات عليك أن تتصرف طبقًا لهذا .. »

نظرت إلى المنضدة التى تراصت عليها زجاجات (الفيراباميل) و(الليدوكايين) و(البروبراتولول) ، كأننا فى عناية مركزة .. مع قناع أكسجين صغير ، وجهاز (أمبو) المخصص للتنفس الصناعى.. وشعرت بأننى بحاجة إلى عناية مركزة أنا نفسى ..

رأى قلقى فابتسم وقال :

ـ «هذا لا يحدث عادة .. لكن تجربة دخول السجلات الأكاشية ليست هينة أبدًا .. لهذا لم أمارسها إلا مرتين فى حياتى .. هذه هى المرة الثالثة .. »

قلت له فى عصبية :

ـ «اسمع .. لماذا لاتجرب مواهبك فى القياس النفسى؟»

ـ «إن ما سأقوم به أشد دقة بلا مجال للخطأ الشخصى .. كأننى أركب آلة الزمن قائمًا برحلة إلى الماضى .. لقد تعلمت هذا من أحد اليوجيين»

ثم التفت إلى المترجمة التى كانت تدخن فى عصبية ، وقال :

ـ «وأنت يا (كاتيا شلوندروفنا) .. لا أريد أن تفوتك كلمة واحدة .. طبعًا من الواضح أننى سأتكلم بالروسية .. »

هزت رأسها أن نعم ..

من ثم أمسك بالقفاز الصوفى فى يده اليسرى ، واغمض عينيه ، وأخذ شهيقًا عميقًا واسترخى فى المقعد .. وقال لى :

ـ « ابدأ يا بنى .. »

ربطت (التورنيكيه) حول ذراعه ، وأولجت القناة الوريدية فى وريد مناسب ، ثم تناولت المحقن .. وبدأت الحقن ببطء .. لم يكن حساب الجرعة مشكلتى بل مشكلته هو .. لأننى لو قللت الجرعة لما حدث شىء ، ولو زدتها لدخل فى نوم عميق ..

تووت ! تووت ! تووت !

قال وهو مغمض العينين :

ـ «الآن أرجوكم الصمت .. خفضى الإضاءة يا (كاتيا شلوندورفنا) .. »



ثم تناولت المحقن .. زدت الحقن بيدي .. لم يكن حساب الجرعة مشكلتي بل مشكلته ..

وبدأ يهوم برأسه كأنما يحاول تبين شىء عسير ..

وساد صمت رهيب ..

أخيرًا راح صوته يتعالى متكلمًا بالروسية بينما المترجمة تحاول اللحاق به بصوت خفيض :

ـ «إننى أخترق السجلات الأكاشية .. أفتح صفحات لاوجود لها .. أنا أعبر المسافات إلى (بورو) .. (سافارى) .. أعبر الأزمان إلى هذا القفاز .. هأنذا أرى المشهد بتفاصيله .. »

وصمت وابتلع ريقه .. فأشعلت المترجمة لفافة تبغ .. ثم عاد يتكلم :

ـ «هناك صندوق يحوى مجموعة من الأجهزة البلاستيكية التى تدخل فى جراحات القلب .. هذا الرجل يعلم .. هذا الرجل يريد .. هذا الرجل أسود البشرة وله جرح على خده .. إنه يدخل الغرفة ويبحث وسط الأشياء .. هناك من يدخل .. مهلاً !

يطفئ الكشاف .. يتربص ويحبس أنفاسه إن رجل الأمن يبحث عن الضوء .. لسوف يراه ! لسوف يقبض عليه .. ارفع الآلة الكاتبة الآن .. ثقيلة ؟ نعم .. هذا يعنى أنها ستكون ثقيلة على رأس الرجل .. ارفعها .. اهو بها .. لقد سقط ! لقد تهشم رأسه .. »

توت ! توت ! توت !

وبدأ إيقاع كلامه يتسارع .. ومعه إيقاع ضربات القلب على المرقاب ..

ـ «اهرب ! لاجدوى الآن من مواصلة البحث ! حتى لو ظفرت بما تريد فلا جدوى .. لن تستطيع أن تخفى هذه الأشياء .. اهرب .. إنه موت عبثى لاجدوى منه .. لكن بوسعك أن تنقذ نفسك على الأقل .. آه ! رجلك تؤلمك .. يبدو أن الآلة الكاتبة قد هوت على أصابعك بعد ما هشمت رأس الرجل .. »

توت ! توت ! توت !

الإيقاع يتسارع ..

توت ! توت ! توت !

- «إن .. إن الأمور .. تسوء .. إن ....»

ثم كفت المترجمة عن الترجمة .. فقط راحت تتكلم بالروسية المذعورة بدورها .

هنا صاحت (برنادت) في رعب :

-« (علاء) ! إن شفتيه ازرقتا ! »

توت ! توت ! توت !

وعلى الشاشة راحت ضربات القلب تتوالى على شكل تسارع ضربات فوق بطيني .

انتزعت نفسي من الدوار ، وأمسكت بمحقن وملأته بالبروبرانولول .. ثم حقنت به الرجل ببطء وأنا أراقب المرقاب .. على حين قامت (برنادت) بتثبيت قناع الأوكسيجن ..

توتوتوتوتوتو !

يا للكارثة ! هل نفقد الرجل ! هل يغيب للأبد وسط تلك السجلات الأكاشية ، كأمين مكتبة ضاع وسط الأوراق المغبرة المتراكمة ؟

بدأ القلب يهدأ .. وبدأ اللون الأحمر يعود لوجه الرجل ووجوهنا ..

فى النهاية فتح عينيه وهمس بصوت واهن بشىء بالروسية ، فقالت المترجمة :

ـ «إنه يسأل إن كان أجاب عن سؤالك ؟»

نظرت إلى (برنادت) وقلت فى تعب :

ـ «نعم ياسيدى .. لقد أجبت على السؤال ..»

★ ★ ★

جلس (سيماكوف) فى الشرفة يشرب عصير البرتقال ونحن نجلس حوله نرشف كلماته بدلاً من البرتقال .. مازال منهكًا بعد تجربة أمس لكنه راض ..

قلت له :

ـ «ولماذا تنكر دومًا أنك تملك قدرات الإدراك الخارق للحواس ؟»

ـ «أحب أن أدارى بعض الأوراق في كمى .. ثم إن العلماء لن ينظروا لى النظرة ذاتها لو عرفوا .. سيتعاملون مع أبحاثى وقتها على أنها (الهراء الذى يكتبه المخرف الروسى العجوز) »

فكرت قليلاً ثم سألته :

ـ «إذن (برنادت) كانت مخطئة .. كيف استطاعت تشخيص الحالات المرضية إذن ؟ »

تحدث إلى المترجمة فقالت لنا :

ـ «الدكتورة (عبد العظيم) لم تصل بعد إلى هذه الدرجة من الشفافية .. إنها جيدة لكنها كما قلت تحتاج إلى عشر سنوات كى تصل إلى مستوى تشخيص الأمراض باللمس .. إن ما حدث وقتها هو أن الطبيبة فيها هى التى تكلمت .. ومن الجلى أنها طبيبة بارعة .. حين جلست أمام المريضين فكرت فى الشىء الوحيد الذى لم يفكر فيه من سبقوها وأصاب حدسها .. لنقل إن الطب يحتاج إلى نوع خاص من الحدس .. نوع من الحاسة السادسة .. وهى تملك هذه القدرة .. »

قالت (برنادت) :

ـ «لكن الرؤيا كانت جلية فيما يتعلق بـ (علاء) .. جلية إلى حد لا يوصف .. »

قال فى ثقة :

ـ «لنقل إن ظروفك لم تكن تمنحك ما هو أفضل .. لاحظى أن د. (عبد العظيم) دخل الغرفة مرارًا ولمس الآلة الكاتبة مرارًا .. ثم إنك تحملين جزءًا من الـ Aura الخاصة به داخلك ، وهذا يجعل الأمور تختلط عليك .. لا يمكن استقبال الـ Aura من الخارج ومن الداخل فى الوقت ذاته .. الأمر شبيه بأن أسمع صوت هاتف ، فلا أعرف إن كان هاتف دارى أم هاتف الجيران .. »

أخرجت قلمًا ورحت أدون به أفكارى :

ـ «رجلنا أسود البشرة .. له جرح على خده .. ويعرج قليلاً بسبب سقوط الـ .... »

ثم نظرت إلى (برنادت) وهتفنا فى صوت واحد :

ـ « (مارسيل) !! »

قال البروفسور وهو يرشف بعض العصير :

ـ «أفترض أنكما عرفتما شخصًا مناسبًا .. »

ـ «نعم .. إنه موظف توريدات مهم فى المستشفى ، ولو جاء شىء كهذا لمكتب المدير لعرف على الفور .. بالواقع لعرف قبل أى واحد آخر .. »

ـ «إذن ابحثا عنه واستنطقاه .. »

كدت أنهض شاكرًا له ثم تذكرت شيئًا ، فقلت :

ـ «لحظة .. قلت إن (برنادت) تحمل فى داخلها جزءًا من الـ Aura الخاصة بى .. هل تقصد الحب ؟»

ـ «بل أقصد الحمل ! الحمل يا بنى .. لقد أجرينا اختبارًا للحمل ووجدناه إيجابيًا ! إن طفلك ينمو فى أعماقها ، وهذا يجعل صورتك حاضرة عند أول محاولة للإدراك من جانبها .. نسيت أن أخبرك أن الحمل يعطل الكثير من قدرات الإدراك الفائق للحواس .. ما بالك يا فتى ؟ لماذا تترنح هكذا ؟»

* * *

12 ـ الخاتمة ..

لما عدنا إلى (سافارى) كانت ثقوب كثيرة قد رتقت فى جدار زواجنا الذى أوشك على أن يتمزق ..

قالت لى (برنادت) فى ذلك المساء، وهى تفتح حقائبنا لتخرج ما بها :

ـ «أنا مدينة لك باعتذار آخر .. لم تكن معلوماتك دقيقة عن إبر الراديوم .. ما كان فى مكتب المدير هو صمامات صناعية لجراحات القلب وهى باهظة الثمن بحق ..»

قلت لها :

ـ «كان المدير يتحدث عن إبر الراديوم هذه منذ أسابيع، وافترضت أنها هى الشىء الثمين الذى لم يخبر به أحدًا، لكنه أخبرنا اليوم أن هذه الصمامات وردت إلى الوحدة قبل الحادث، واحتفظ بها فى مكتبه

لأنه خشى أن يسلمها للموظفين فى المخزن .. إنه مازال قلقًا عصابيًا يخاف كل أنواع المسئوليات المادية »

ـ «كان (مارسيل) يعرف . وخطر له أن سرقة بعض هذه الصمامات قد تمر على خير .. إن عدد من يعرفون لايقل عن سبعة .. ويمكنه أن يفعلها دون أن يكتشف أمره .. »

ثم فكرت قليلاً وسألتنى :

ـ « هل اعترف ؟ »

ـ «سيعترف .. إن العقيد سيعرف كيف يجعله يتكلم .. هذه هى أمتع فرصة سنحت له فى الحياة .. »

ـ «ولو لم يتكلم ؟ »

ـ « إذن لن يحدث له شىء .. لايمكن قبول هذه الرؤى التى رآها (سيماكوف) فى أية محاكمة .. لكن العقيد يعتمد على الضغط النفسى .. على الرعب الذى سيحل بالرجل حين يصفون له الجريمة كأنما

رأوها .. سينهار سريعًا .. إن كل رجل شرطة يعرف هذا جيدًا .. »

ثم نظرت لها فى حدة وقلت :

ـ « هذه آخر مرة تسيئين فيها الظن بى .. »

ـ « آسفة .. كانت كل الشواهد ضدك .. بل كانت ضدى ! »

ثم فكرت قليلاً وأضافت :

ـ « لكن لماذا يفعل بعض الناس هذا كله من أجل المال ؟ »

ـ « لأنه رائع .. هذا هو كل شىء .. »

ثم شردت بذهنى وأنا أحلم بصوت مسموع :

ـ « إن المال يحل مشاكل كثيرة .. فكرى فى بيت ذى حديقة فى أهدأ موضع من العالم .. فكرى فى بحر لايبعد إلا عشرين مترًا .. فكرى فى نزهة فى (سنغافورة) أو الهند أو البرازيل .. فكرى فى يخت

خاص وطائرة رياضية و .. فكرى فى أى شىء غير هذا السجن الذى نعيش فيه .. إننى .... »

ثم توقفت عن الكلام ..

كانت تنظر لى فى قلق ..

قلت بسرعة :

ـ «لكنه المال الحلال طبعًا .. هل تفهمين ؟ أتحدث عن المال الحلال !!!»

* * *

فى مختبره يراجع (سيماكوف) أوراقه .. يقطب جبينه ..

ينادى المترجمة التى هى سكرتيرته أيضًا ، ويقول لها :

ـ «ليست كل إجابات ذلك الطبيب الشاب ـ (عبد العظيم) ـ غبية كما تصورنا .. هل تذكرين ذلك المفتاح والقلم وبعض الأشياء التى استعملناها فى

تجاربنا ؟ إنها تخص صديقًا لى من موسكو هو (ألكسيس فيتشينا) .. ما معنى (فيتشينا) فى الروسية ؟ »

نظرت له واتسعت عيناها وقد فهمت ما يرمى إليه :

ـ «معناها .. معناها (لحم خنزير) !! »

وتبادلا النظرات .. كنت أتمنى أن أعرف ما حدث بعدها ، لكن هذه الأشياء كلها خارج نطاق عملى فى (سافارى) .

تمت بحمد الله



روايات مصرية للجيب

سافارى

الآن .. نرجوكم الصمت

الآن نرجوكم الصمت .. إن التجربة التى نحن بصددها معقدة حقًا ، تفسدها الكلمات والتلميحات والضحكات الخافتة ..

الآن نرجوكم الصمت .. فما يحدث الآن يحدد مصائر كثيرين من الأشخاص ..

الآن نرجوكم الصمت .. إنها حاسة كانت لدينا ثم تلاشت أو غطاها الصدأ .. واليوم نحن نعيد اكتشافها ..



د. أحمد خالد توفيق

الثمن فى مصر ٢٥٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم
كليمنجارو